الدكتور محمد سليمان أيوب

جِرْمَة

من تاريخ الحضارة الليبية

دار المصراتي
للطباعة والنشر
طرابلس - ليبيا

جرمة : من تاريخ الحضارة الليبية

الطبعة الاولى
١٩٦٩

الدكتور محمد سليمان أيوب

حسن يوسف الكموشي

جرمة

من تاريخ الحضارة الليبية

دار المصراتي
للطباعة والنشر
طرابلس - ليبيا

الناشر: دار المصراتي ـ «مؤسسة ثقافية للطباعة والنشر والتوزيع ،
مركزها الرئيسي ـ طرابلس الغرب ـ ليبيا

رسالة قدمها

محمد سليمان ايوب

للحصول على درجة الدكتوراه في الآداب

بإشراف

الاستاذ الدكتور نجيب ميخائيل ابراهيم
استاذ التاريخ القديم
ورئيس قسم التاريخ بكلية الاداب بجامعة الاسكندرية

ناقشه الدكاترة

الاستاذ عبد المنعم ابو بكر
عميد كلية الاداب جامعة القاهرة
ورئيس قسم الآثار بها

الاستاذ هنري رياض
امين المتحف المصري بالقاهرة

مقدمة

تقع ليبيا على الشاطىء الجنوبي للبحر المتوسط. ويمكننا اجمالاً ان نقول ان الحدود الشرقية لليبيا تسير مع خط الطول ٢٥° بينما تمتد الحدود الغربية الى القرب من خط الطول ١٠° وتمتد سواحلها الى الجنوب من خط العرض الشمالي ٣٣° أما الحدود الجنوبية فتصل اقصى عمقهـــا الى خط العرض ٢٠° . وتحد ليبيا من الناحية الشرقية بمصر كما ان ركنها الجنوبي الشرقي يحد بالسودان واما من الناحية الشمالية الغربية فتحد بتونس وتجاور الحدود الجزائرية حدود ليبيا من الناحية الغربية والجنوبية الغربية أما الحدود الجنوبية فتتاخم « تشاد » من الناحية الشرقية والنيجر من الناحية الغربية .

ومن ناحية التضاريس تتكوّن ليبيا من سهل ساحلي يمتد بطول السواحل المطلة على البحر المتوسط. وهذا السهل الساحلي ضيق في الناحية الشرقية وواسع في الجهة الغربية من البلاد وهو يعرف هناك باسم سهل الجفارة . ويلي السهل الساحلي كتلتان من الهضاب إحداهما للناحية الشرقية وهو يعرف باسم الجبل الاخضر . اما كتلة الجبال الغربية فتعرف باسم جبال

نفوسه وهي تمتد من الغرب الى الشمال الشرقي حيث تقترب من البحر اقتراباً شديداً بالقرب من مدينة الخمس . ويلي هذه المرتفعات حزام صحراوي يتكون من أراضي تتدرج في الانحدار نحو الجنوب ويتخلل هذه الأراضي المنحدرة سلسة من الهضاب والمرتفعات تتمثل في بحر الرمال الكبير المعروف باسم سرير كلنسيو وهضبة الهروج الأسود وامتدادها الشمالي في جبل ودان الذي يمد شمالاً حتى سواحل البحر المتوسط (شواطىء خليج سرت) . ويتصل الهروج الأسود من الناحية الغربية بالمرتفعات ذات الصخور السوداء المعروفة بجبل السوداء — أما المرتفعات الغربية (جبل نفوسه) فإنها تتدرج في الانخفاض لتتصل بهضبة مرتفعة تعرف باسم حماده الحمراء التي تتصل بجبل السوداء وترتبط بها عن طريق المرتفعات التي تعرف باسم جبل حسونه او جبل فزان .

وتمتد من المرتفعات التي تكوّن الحزام الصحراوي الشمالي الى سواحل البحر المتوسط سلسلة من الأودية لاسيما في منطقة خليج سرت ومنطقة مصراته حيث يصب في البحر عدد كبير من الأودية . كما انه يمتد بها بعض الأودية التي تتجه جنوباً لتصب في أودية او أحواض داخلية .

ويلي المنطقة السابقة الصحراء الكبرى المعروفة باسم الصحراء الليبية وتختلف مظاهر السطح هنا عن ما عداها من المناطق في المملكة الليبية إذ نجد أن المنطقة تتكوّن من عدد من الهضاب والسلاسل الجبلية التي هي في الحقيقة امتدادات لهضاب وسلاسل جبلية توجد خارج المملكة ، فنجد مثلاً ان صحراء اوباري أودبون اوباري هي امتداد للارج الكبير الموجود بالجزائر ،وهي في مجموعها كثبان عالية من الرمال تمتد الى الجنوب من حمادة الحمراء ويحدها من الشمال الشرقي وادي الشاطىء وهو واد يمتد من الغرب الى الشرق بينما يحدها من الجنوب وادي الاجال الذي يمتد ايضاً من الغرب الى الشرق بينما يحدها من الشرق وادي البوانيس .

ومرتفعات تدرارت (الأتاكوس) ليست إلا إمتداداً لهضبة تاسيلي الموجودة للجنوب منها وكذلك سلسلة جبال الامساك وامتدادها في حمادة مرزق — ويعتبر جبل بن غنيمة امتداداً لهضبة تبستي الواقعة جنوبها .

ولا يتبقى من مظاهر السطح في المملكة الليبية الا بحار الرمال الموجودة في جنوب المملكة وهي المعروفة شرقاً بصحراء ربيانة ، وتقوم بها واحات الكفرة في الشرق وجبل العوينات في الركن الجنوبي الشرقي . والصحراء المعروفة باسم سرير تبستي في الوسط، والى الشرق توجد صحراء مرزق التي يحدها من الناحية الشمالية وادي الحفرة التي تقع فيها مدينة مرزق ووادي برجوج الواقع للغرب منها . ويحد بحر الرمال المسماة ببحر مرزق من الناحية الشرقية بوادي الحكمة الذي تقع فيه قرية القطرون . ويكتنف هذه الصحراء بعض البراكين الخامدة التي اصبحت فوهاتها مع مرور الزمن مستنقعات او بحيرات مالحة مثل واد الناموس .

وتنقسم المملكة الليبية من الناحية الجغرافية الى ثلاث أقسام وهي : برقة في الشرق وطرابلس في الشمال الغربي وفزّان في الجنوب الغربي وقد كان هذا التقسيم الجغرافي هو الاساس في التقسيم الإداري للمملكة الى ثلاث ولايات قبل ادماج هذه الولايات في محافظات . وتتكوّن فزان اليوم من محافظتين الشمالية منهما وتسمى بمحافظة سبها والجنوبية تسمى بمحافظة اوباري . ومن المعروف ان مساحة الجزء الذي كان يسمى بفزان كان أوسع قديماً عن ما هو عليه اليوم،فقد كان يمتد من الناحية الشمالية على طول السفوح الجنوبية لجبل نفوسة ويدخل فيه المرتفعات المعروفةاليوم باسم جبل الصالحات ومرتفعات مسلاته كما كان يدخل في منطقة فزان وادي زازامت وواحات بونجيم وجالو ، وكانت منطقة غدامس احدى المناطق المهمة من فزان . ومن المحتمل ان الحدود الشرقية لفزان كانت تشمل منطقة واحات الكفرة . أما الى الجنوب فلقد كانت هضبة تبستي وتسيلي

تكوّنان الركن الجنوبي والجنوبي الغربي لحدود اقليم فزان .

وتتسم مظاهر السطح في فزان عموماً بالمظهر الصحراوي ولكن ليس معنى هذا ان فزان عبارة عن بحر من الرمال ، بل إننا نشاهد ان الصحراء الليبية في اقليم فزان تتكون من اشكال مختلفة للصحراء فمنها سلاسل الجبال ذات القمة المسطحة وهي تعرف باسم الحمادة مثل حمادة الحمراء التي تفصل غدامس عن وادي الشاطىء . وغدامس واحة في الصحراء بها الكثير من الابار والعيون ويمتد منها وادي تناروت Tanarut الذي كان طريقاً قديماً يصلها بداخل فزان . ويكوّن جبل السوداء وجبل حسونة (فزان) خط تقسيم للمياه تنحدر من سفوحها الشمالية الأودية التي تصب في البحر الأبيض المتوسط مثل وادي المالحة Malihah ووادي غيلان أما من السفوح الجنوبية فتنحدر الأودية التي تصب في الأحواض الداخلية المغلقة بفزان مثل وادي زجزا ووادي مسعودة اللذان يصبان في وادي الشاطىء الواقع الى الجنوب منهما .

ويعتبر وادي الشاطىء ووادي الاجال اكبر الاودية بفزان ، ويظهر انهما كانا مجريين لنهرين قديمين ، وكان وادي الاجال يمتد شمالاً حتى يلتقي بوادي الشاطىء عبر واحات البوانيس التي تقع عليها سبها وكان نقطة الالتقاء عند نقطة لا تبعد كثيراً عن ملتقى طريق براك بطريق سبها طرابلس الحالية ، ومن المحتمل ان ذلك النهر كان يشق طريقه شمالاً عبر جبال السوداء ليصب في البحر المتوسط ومن المحتمل انه كان نهراً ذا تصريف داخلي اي أنه كان يصب في بحيرة داخلية . ويمتد وادي الشاطىء اليوم من الغرب الى الشرق وهو وادي منخفض كثير المياه الجوفية وتتفجر فيه العيون . وبعض هذه العيون حارة مثل عين المحروقة . وتتناثر عليه القرى من الغرب الى الشرق فيوجد به بلدة ادرى ثم القرى التالية : الحطبة وتمسان ووتزريك وبرقف والمحروقة وتاروت واجار ثم بلدة براك وزوية

ودبدب واشكده .

أما واحة البوانيس فتمتد من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي وبها في اقصى الجنوب مدينة سبها والى شمالها الشرقي قرى : تمنهنت وسمنو والزيغن وام العبيد .

وتفصل وادي الشاطىء عن وادي البوانيس كثبان عالية من الرمال وهي تسمى بالزلاف ويعتبر الزلاف امتداداً للصحراء الرملية المسماة بصحراء اوباري وهي بدورها تعتبر امتداداً لبحر الرمال الكبير الذي يغطي المنطقة الوسطى من شرق الجزائر ويسمى هناك بالارج الشرقي الكبير . وتعتبر صحراء اوباري من اشق الصحارى عبوراً نظراً لكثبانها العالية وقد اضفت بموقعها حماية طبيعية على وادي الاجال الواقع للجنوب منها ويوجد بهذه الصحراء سلسلة من البحيرات المالحة كانت بعضها فوهات لبعض البراكين الخامدة مثل بحيرة قبرعون .

وتحد صحراء اوباري الرملية من الناحية الجنوبية بوادي الاجال وهو واد منخفض يقع بين صحراء اوباري الذي يحدها شمالاً والهضبة الصخرية الواقعة الى الجنوب منها والمسماة بحمادة مرزق وتتعرج سلسلة الجبال المكونة لحمادة مرزق في اتجاهها مكونة في الوادي برزخاً او خلجاناً وتنحدر الارض من كلا الجانبين (من الهضبة الصخرية الواقعة للجنوب والهضبة الرملية الواقعة للشمال) تدريجياً حيث تصل الى أقل انخفاض لها في بطن الوادي ، ولذا فإننا نجد المياه الجوفية تخرج هناك تلقائياً على شكل العيون او تنشع لتكوّن المستنقعات والبرك ، ويوجد في وادي الاجال القرى التالية من الغرب الى الشرق : اوباري ، جرمة ، لوركو الرجيبه ، بنبيا ، خليف ، الابيض، وتمتد كتلة من الجبال على شكل رأس صخري يمتد من الجنوب الى الشمال ويتصل بالهضبة الرملية (صحراء اوباري) وذلك للغرب من قرية العقيد ، وتقوم هذه السلسلة بتقسم وادي الاجال

الى قسمين : القسم الشرقي منها ويعرف باسم الوادي الشرقي والقسم الغربي منها ويعرف باسم الوادي الغربي .

ووادي الاجال كوادي الشاطىء كثير المياه الجوفية وهي قريبة جداً من سطح الأرض لاسيما في بطن الوادي .

وتحد سلسلة حمادة مرزق وادي الأجال من ناحيته الجنوبية وهي تمتد غرباً بانحناء يسير للجنوب الغربي بعد النقطة التي يبدأ عندها وادي الاجال للغرب من بلدة اوباري وتمتد قبالة وادي اراوان Irawan الذي يمكن اعتباره الامتداد الغربي لوادي الاجال . ثم نجد ان سلسلة جبال حمادة مرزق تنحني فجأة لتتخذ لها اتجاهاً جديداً نحو الجنوب وهي تعرف هنا باسم سلسلة جبال امساك اسوداء، وتتصل السلسلة الاخيرة بهضبة تسيلي الواقعة للجنوب منها عن طريق سلسلة من الجبال المسماة بالامساك البيضاء . وتنحدر السفوح الجنوبية لسلسلة حماده مرزق بلطف حيث تنتهي بارض مسطحة تمتد على مدى البصر تكسوها طبقة خفيفة من الحصى الصغير ويعرف باسم سرير مرزق ويتخلل هذه الأرض المسطحة بعض الأودية وتنتهي تلك الأرض المسطحة بدورها جنوباً بتلال رملية تشرف على واد طويل يمتد من الغرب الى الشرق ويعرف باسم وادي برجوج (من الناحية الغربية) وباسم وادي الحفرة (من الناحية الشرقية) وهما في واقع الأمر واديان منفصلان ، فأما الغربي منهما وهو وادي برجوج فإنه ينبع من الغرب من السفوح الشرقية لمرتفعات الامساك ويسير شرقاً الى الغرب من قرية تساوا حيث تتجه جنوباً لتصب في الحوض الواسع الذي يشغله الان صحراء مرزق او دبون مرزق وهي مرود عالية من الرمال تغطي المنطقة الواقعة بين جبال الامساك في الغرب وجبل بن غنيمة في الشرق . ولا يوجد بهذا اصحراء واحات بل هي قفراء جرداء . اما وادي الحفره فهو واد كبير يمتد من الغرب الى الشرق وتقع عليه عدة

قرى منها ام الحمام والزرقان وتراغن وام الأرانب وزويلة .

والى الشرق عن هذه المنطقة تقع هضبة الهروج الأسود وهو كتلة ضخمة من الهضاب ذات الاحجار الداكنة الشديدة السواد وتعتبر في حقيقة الأمر امتداداً لجبل السواد وجبل ودان وتمتد من الشمال الى الجنوب لتفصل اقليم برقة الواقعة الى الشرق منها عن اقليم فزان الواقع الى الغرب وهي تصل في امتدادها جنوباً حتى الى القرب من سلسلة جبل بن غنيمة وهذه السلسلة متوسطة الارتفاع وتمتد من الشمال الى الجنوب حيث تتصل هناك بمرتفعات تبستي ، وعلى مسافة قريبة من الحواف الغربية لمنحدرات جبل غنيمة يقع وادي الحكمة الذي يمتد من الشمال الى الجنوب في موازاة الجبل ويقع في هذه الواحة (من الشمال الى الجنوب) القرى التالية : القطرون ، البخي . مدروسه ، تجرحي .

ولا يبقى بعد ذلك من المناطق الجنوبيـــة سوى منطقة الكفرة في الشرق وهي تقع في وسط واحة منخفضة نسبياً تحيط بها هضبة متوسطة الارتفاع تكتنفها بعض المرتفعات الصخرية والرمال العالية والارض المسطحة المعروفة بالسرير وكذلك المنطقة الغربية المعروفة باسم مرتفعات تدرارت وهي امتداداً لهضبة تسيلي وتمتد كلسان من الجنوب الى الشمال وتفصل رؤوسها الشماء التي تصل الى الفي قدم او اكثر حوض وادي تنازوفت الواقع للغرب منها والتي تقع عليها بلدة غات وقرية البركات عن منطقة الهضبة الرملية العالية التي تفصل جبال تدرارت في الغرب عن جبال الامساك في الشرق . ولا تمتد جبال تدرارت إلاّ الى مسافة قليلة داخل البلاد الليبية اذ انها تنتهي الى مسافة قريبة للشمال من قرية سرديلس (١).

ونحن نلتقي من وقت لآخر ببعض المسميات التي يستحسن ان نوضحها قبل ان نسترسل في الحديث عن جغرافية المنطقة . فهناك مثلاً الهضاب المرتفعة المعروفة باسم الحمادة وهي عبارة عن هضبة مرتفعة مسطحة بفعل

عوامل التعرية وهي تتكوّن في العادة من الصخور الرملية او الطباشيرية التي تسوى بفعل عوامل تعرية المياه او الرياح (٢) . وتغطي المرج او السرير مساحات واسعة من الصحراء سواء الأراضي المرتفعة منها او الأراضي المنخفضة وهي من الظواهر المميزة لتضاريس السطح بالصحراء ، والسرير عبارة عن سهل مستو يمتد على مدى البصر يكسوه الحصى والاحجار الرفيعة . ويرجع السبب في تكوين هذه السهول المترامية ان الوديان الصحراوية الجافة اليوم كانت، في خلال عصور نشاطها في الاجيال المطيرة تنتهي لتصب في أحواض مغلقة ، فكانت الرمال والحصى والرواسب الغرينية التي تحملها مياه تلك الأودية تستقر في قاع تلك الأحواض المغلقة ، وبمرور الوقت كانت هذه الرواسب، تخنق مصبات الاودية مما كان يحملها على شق مجاري جديدة خلال هذه الرواسب حتى تصل الى بطن الحوض حيث ترسب مرة اخرى ما تحمله من الحصى والرمال ، وهكذا بمرور الزمن امتلأ قاع الحوض بالرواسب . فلما جفت الأودية وأخذت الصحراء شكلها النهائي تفتت المواد لهشة كالغرين وحملت الرياح الاتربة والرمال وتركت الحصى والاحجار ثم أخذت عوامل التعرية تعمل عملها فعاد السطح مستوياً لا يعلوه سوى الحصى والاحجار الصغيرة (٣) .

لعل أهم أنواع التضاريس بالصحراء هي تلك المسماة بالارج erg او المساحات المغطاة بالكثبان الرملية ويُعرِّف جوتييه Gautier الارج بأنه: « وشاح من الرمل يغطي حسراً شديدة الغور في الصخر » .

ويعتقد جوتييه ان ذلك الجزء المرتفع من الصخر الذي تعلوه الرمال من فعل تحات المياه (٤) .

ولعل ابلغ وصف لكيفية تكوين الارج هو ما اجمله اوجيراس Augiéras في وصفه الصحراء بأنها كانت في الأصل قاعاً لبحر جف

في خلال الأجيال القديمة وان الرمال نفسها كانت نتيجة لتحلل الصخور بفعل عوامل التعرية نتيجة للجفاف الشديد الذي اعقب الزمن المطير في بداية عصر الصحراء وهو يجمل ذلك التفسير في السطور القليلة التالية : عندما كانت الأنهر تجري في المناطق التي نراها اليوم جرداء والتي تسمى الان بالصحراء كانت تلك الانهر تحمل معها كمية لا بأس بها من الغرين والرمال .

فلما توقفت تلك الأنهر عن الجريان خلفت في قيعان مجاريها الكثير من الرمال التي ظلت متماسكة في أماكنها بفضل الغطاء النباتي من الحشائش ... ولكن عندما جفت التربة وماتت الحشائش تفتتت الرمال وأصبحت فريسة تذروها الرياح وتهيلها فوق بعضها حتى اصبحت مروداً عالية من الرمال .

ويعبّر اوجيراس عن ذلك بقوله : « وبعبارة اخرى فان الارج يشغل مهد المجاري القديمة » فهو كرسم خفيف ملطخ بشبكة من العصر الرابع(٥) (البليستوسين) وتسمى الممرات المنخفضة التي تمر عبر هذه المرود باسم جاسي Gassi وهي فتحات منخفضة تربط بين الأراضي المسطحة التي تفصل بينها هذه المرود .

وتتكوّن الصحراء من الناحية الجيولوجية من عدة تكوينات فمنها التكوينات البركانية التي هي الصخور البركانية وبقايا اللافا وهذه توجد إما على السطح كبقايا بركانية قديمة وإما تحت طبقات اخرى . وهناك التربة الرسوبية وهذه تتكون من الغرين والطمي التي كانت ترسبها الوديان الجارية وقد عملت عوامل التحات والجفاف عملها في هذه التربة فنقلت بعضها من امكنتها بينما غطت البعض الآخر بسطح اخر من التربة او عملت على تآكلها وتعريتها كما هو الحال في كثير من الاودية القديمة . ومنها الصخور المتحولة ومنها الأنواع المختلفة من الصخور البحرية والبرية

كالصخور الجيرية والطباشيري، وصخور الرمل النوبي وغيرها .

ويرى بيير بلير Pierre Bellair أنه فيما عدا التكوينات التي تمت في الزمن الرابع فإنه لا يوجد هناك سوى عدد محدود جداً من التكوينات الاخرى . وقد اجمل ذلك فيما يلي :

« إذا غضضنا النظر عن الاجزاء التي ترجع الى العصر الرابع فإن المرء لا يستطيع ان يتعرف في كل هذا الامتداد الشاسع الا على عدد قليل جداً من التكوينات الطبقية المختلفة :

١ – فالحجر الرملي النوبي هو من زمن بعيد التكوين الاكثر انتشاراً وهو يعتبر كأنما يمتد من الفحمي الى الطباشيري . وهو طبقاً لما يرى الجيولوجيون الايطاليون وبخاصة أ . دزيو A. Desio – يمكن تقسيمه الى قسمين : سفلي هو « الباليوزوي » وعلوي هو « النوبي » الذي يصبح في هذه الحالة « ميزوزوي » واشد صلابة من سالفه تماماً (ويجب ان نعترف ان هذا التقسيم – المريح على الورق – ليس من السهل تطبيقه تماماً على الارض . ذلك انه يستند في الواقع على وجود او عدم وجود الاخشاب المتحجرة التي نجدها احياناً كثيرة الانتشار ، وحتى الان نجد ان كل النماذج التي عثر عليها ترجع الى عصر ثانوي ، ولكن عدم وجودها ليس في الواقع سوى مظهر سلبي ، وليس على اية حال بينة على العمر) وفي المساحات المبينة أعلاه لا نجد سوى الحجر الرملي النوبي الباليوزوي ونحن لتقي به خارج حوض فزان او على الأقل عند حواف الحوض عند مرتفعات تومو Toummo وفي شرق جبل بن غنيمة .

٢ – اما الأراضي الاخرى في مستوى فزان في مساحات كانت أصلاً بحراً او نقعاً نستطيع تحديدها من الحفريات Fossilles وترجع الى

العصر الفحمي السفلي والى الديفوني العلوي وهي من الحجر الرملي والجيري تتخللها طبقات بحرية .

أما الطبقات الدنيا من الديفوني الأعلى ومن الكامبروزيليه والديفوني الاسفل والأوسط فلا تصل الى مستوى فزان ولكنها توجد من غير شك في غور ابعد . في الناحية الغربية على الأقل من الحوض الفزاني وهي تمتد في نفس المستوى الى ناحية الغرب في كل نواحي تاسيلي Tassili ويبدو أننا نستطيع ان نؤكد انها تمتد كذلك الى ناحية الجنوب ما دامت معلوماتنا عن اقليم مرتفعات « توهو » لا تزال حتى اليوم جزئية .

وفيما عدا ذلك سنشهد تفصيل تلك التكوينات التي تهم معرفتنا باحجار بالنسبة للدور الهام الذي لعبته من وجهة النظر الهيدروليكية .

أما من وجهة نظر التكوين فان فزان يمكن تقسيمها الى وحدتين متميزتين :

أ — الاقليم الالتوائي المرتفع او الفحمي والديفوني الأعلى الذي يسير في مستوى تابع لخط غربي شرقي او مواز للخطوط الرئيسية للواحات . والمنحدر الشمالي لهذا الالتواء يضيع تحت ركام متنافر من الطباشيري البحري في « حمادات الحمراء » المنحدر الجنوبي فمختبيء تحت تكوينات الكثبان الزاحفة حديثاً من « ارج اوباري » .

أما الحجر الرملي الجنوبي فيصل الى بني بيبه (عند تضعيف « حمادة مرزق » متدلياً الى الجنوب الى مسافة درجتين او ثلاثة على الاكثر) وهذا يدعو الى افتراض اختلافات في خطوط عرض نفس المستوى ما بين اربعين متراً وكيلومتر تقريباً وهو — بهذه الصورة — يقوم لطبقات الحجر الرملي النوبي المدفونة ما بين ادري وبني بيبه سمكا يبلغ على الاقل

الفي متر للطبقات النوبية الواقعة تحت قاع « حمادة مرزق » .

ومن ثم فنحن مضطرون الى ان نختم هذا بالقول ان حواشي حمادة مرزق ترجع الى اضافات وزيادات خشنة بسبب تدلي بعض الطبقات وان الحجر الرملي النوبي تحت الارج يكاد يكون افقياً . ونلاحظ كذلك ان هذا يقدم ترتيباً غير منسق يمتد من درجة الى ثلاث درجات بين الفحمي والنوبي . ويربط هذا — عن طريق التتابع بين منخفض وادي الاجال وحدث تكتوني مما يشير الى أنه كان اكثر رخاوة وربما كانت اهمية هذا الأمر تهم من الناحية الجغرافية اكثر مما تهم من ناحية التكوين الطبقي ومع ذلك فإن هذا لا يمنعنا من ان نلاحظ في نفس الوقت ما حدث للوادي نتيجة للحدث التكتوني مما ادى الى سقوطه وخسفه .

ب — أما منخفض الالتواء الجنوبي الذي يمتد من غير شك بحيث يشغل كل ارج مرزق وهو التدلي الشمالي من هذه المنطقة فيتكون من طبقات نوبية في حمادة مرزق وسرير الجاتوسة ويقع المرتفع الجنوبي قرب مدار السرطان . (٦)

وقد شرح العالم الجيولوجي الايطالي تاريخ طبقات الارض بفزان في المجلد الذي اصدرته الجمعية الجغرافية الملكية الايطالية عام **١٩٣٩** بقوله :

« في أواخر العصر الاركي كانت فزان لا تزال جزءاً من الكتلة القارية إلا أنه حدثت خلال لعصر الباليوزوي انخفاضات في القشرة الأرضية كان نتيجتها توغل مياه البحر وابتلاعها لاجزاء كبيرة من اليابسة .

ويظهر بوضوح ان البحر كان يمتد جنوب المنطقة التي تقع فيها الهضبة المسماة اليوم بـ « الهروج الأسود » وقد استمر ذلك حتى العصر الكامبري والسيلوري الاسفل .

وفي نهاية العصر الاردفيشي زاد عمق البحر الذي امتد حتى غات وترجع التربة الصلصالية التي تشاهد على صخور العوينات الى هذه الفترة . وقد تلا هذه الفترة زمن كثرت فيه الزلازل التي تسببت في انخفاض الاجزاء الشرقية من فزان حيث قام شاطىء كبير كان يصل حتى الى واد الناموس . بينما ارتفعت الاجزاء الغربية الواقعة حول غات وقد اصبحت تلك الاجزاء جزءاً من الكتلة القارية .

وكان المناخ حاراً ورطباً وكانت الامطار تهطل بغزارة وكانت الأنهار تفيض لترسب ماءها في البحيرات الداخلية او في احدى خلجان البحر الكبير الذي كان يمتد حتى واد الناموس والذي سمي في الجيولوجيا (بحر تيشي)
وفي أواخر العصر الميزوروي ظهرت الحيوانات التي تنتمي الى مناخ المناطق الدفيئة وقد انحسر البحر خلال العهد الاوليجوسيني بل واختفت آثاره من جميع اجزاء فزان ثم حدثت حركات تكتونية كان من نتيجتها تكوين الأودية والاخاديد والهضاب العالية .

ومنذ عصور موغلة القدم انتشرت على سطح الارض بفزان الصخور التي ترجع في أصلها الى الحمم البركانية بينما استقرت الرواسب البحرية في قاع الخلجان القديمة .

وفي الزمن الجيولوجي الاخير استقرت الأحوال بفزان على النحو الذي سنجده في عصور ما قبل التاريخ . (٧)

تقع فزان اليوم على الناحية الشمالية من الصحراء الكبرى التي تشغل منطقة واسعة فيما بين سواحل البحر المتوسط شمالاً ومنطقة السافانا الافريقية جنوباً اي بين حوالي خط عرض ٣٥° و ١٥° شمالاً كما أنها تشمل الأراضي الواقعة بين البحر الاحمر شرقاً والمحيط الأطلسي غرباً ، وتكون الصحراء الليبية الجزء الاوسط من الصحراء الكبرى . ويمكننا استناداً على

ذلك ان نقول بأن فزان تتبع من الناحية المناخية الطقس الصحراوي الذي يشتهر بجوه القاري اي أنه شديد الحرارة صيفاً شديد البرودة شتاء،كما ان الفرق بين درجات الحرارة ليلاً ونهاراً كبيرة مما يسبب تفتت الصخور وتآكل التربة . أما الأمطار فتكاد تكون معدومة الا في الجهات الشمالية المتاخمة لسهول البحر المتوسط حيث تسقط بعض الامطار خلال الشتاء فتفيض الوديان،كما ان بعض الجهات الداخلية مثل وادي الشاطىء وواحات سبها والبوانيس تسقط بها بعض الامطار الشتوية . هذا الى أن بعض السحب تسقط الأمطار بالنواحي الشمالية فالسحب الاستوائية قد تصل في توغلها شمالاً في بعض الأحيان الى الأطراف الجنوبية من فزان فتسقط بها بعض الأمطار ، وقد تكرر في السنين الاخيرة فيضان بعض الاودية في جهات غات نتيجة لتلك الامطار . وفيما عدا الامطار التي تسقط في فترات متباعدة على الاجزاء الاخرى من فزان فإننا يمكن ان نعتبر ان فزان منطقة عديمة المطر طول السنة ولا يعتمد أهل فزان على مياه الامطار بل انهم يعتمدون على المياه الجوفية (٨) وهي المياه الموجودة في باطن الارض منذ آلاف السنين،وهي التي تسربت الى جوف الأرض خلال الطبقات المسامية حيث استقرت في صهاريج طبيعية من الصخور الصلدة الموجودة في باطن الأرض ، واخذت هذه المياه تسير في مسارب وقنوات في جوف الارض حتى إذا صادفت تربة ضعيفة انبثقت منها بقوة على شكل العيون الفوارة او ظهرت على سطح الارض كبحيرة او مستنقع او نشع ماء وهو الذي يعرف بالحسى . وتبعاً لذلك قام الانسان بحفر الكثير من الابار حيث يوجد الماء على مستويات مختلفة طبقاً لسير المياه في الطبقات السفلية ولكن ليس معنى هذا ان أي مكان بالصحراء يوجد به ماء اذ ان هناك جهات قاحلة لا يوجد بها أي صهريج لتلك المياه الجوفية ، كما ان درجة عذوبة او ملوحة هذه المياه تختلف من مكان الى آخر نتيجة لنوع الطبقات الصخرية التي تمر بها تلك المياه .

والرياح السائدة على فزان هي الرياح الشمالية وهي جافة ومعتدلة إلا أنه تهب عليها خلال فصل الصيف رياح حارة تعرف باسم الجبلي لأنها تهب من الناحية الجنوبية وتحمل هذه الرياح الكثير من التراب وقد يستمر هبوبها في بعض الأحيان بضعة أيام وهي ذات آثار مضرة بالزرع والحيوان وكثيراً ما تطمر الآبار لاسيما الموجودة منها في الاماكن النائية.

وتعد الظواهر المناخية من بين المعاول الهدامة التي عملت على إزالة الغطاء النباتي من الصحراء. وعموماً فإنه لا تنبت بالصحراء بفزان أية نباتات اللهم إلا اذا استثنينا بعض أنواع الصبار والنباتات الشوكية والاعشاب التي تتحمل الجفاف الشديد، ولا يوجد بالصحراء أي نوع من الاشجار التي تنبت تلقائياً سوى بعض الاشجار الشوكية وبعض النخيل والاخيرة تنبت عادة في الواحات وهي تشكل في بعض الاحيان غابات كثيفة تعرف باسم الحطية، ويعد النخيل أهم الاشجار بالصحراء الليبية فثمارها وهو «التمر» تشكل الغذاء الرئيسي للسكان ومن جذوعها تصنع أبواب المنازل والاعمدة التي ترفع السقوف، ومن الجريد وهي الفروع يصنع اثاث المنازل واشياء اخرى كثيرة، فلا غرو ان كانت النخلة في نظر سكان فزان اثمن شيء في الوجود.

وتعتبر اشجار الاتل اثمن الاشجار بفزان بعد النخيل وهي تستعمل في إقامة الشواديف والسواقي لمتانة خشبها. وهناك اشجار الاكاليبتوس (الكافور) التي قامت الحكومة بنشر زراعتها لتشجير الواحات.

وتقوم على مياه الامطار بعض الأعشاب التي ترعاها الحيوانات وهي تنبت في اغلب الاحيان في الأودية او الواحات ولكنها قصيرة العمر. ويزرع الأهالي بواسطة مياه الآبار بعض المحصولات مثل الذرة والشعير والقمح وبعض الخضروات مثل البصل وبعض البقول وتشجع الحكومة

الأهالي على الزراعة بإمدادهم بالقروض التي تساعدهم على شراء الالات الزراعية والموتورات الميكانيكية التي تساعدهم على رفع مياه وري الحقول ان مؤسسة الاستيطان الزراعي قد قامت بحفر الكثير من الآبار الإرتوازية ولا زالت عملية صرف المياه المشكلة الرئيسية التي تواجه التوسع الزراعي بواحات فزان .

ولا يعيش بفزان اليوم من الحيوانات البرية سوى أنواع قليلة من الحيوانات أهمها الضبع والذئب وابن أوى وبقر الوحش والودان والغزال والارنب الجبلي وأنواع مختلفة من الجرذان البرية . أما الزواحف فأهمها الورل والسحالي وأنواع كثيرة من الأفاعي . أما الحشرات فمنها الخنافس والعقارب وغيرها . أما الطيور البرية فاهمها النسر والصقر والغراب والهدهد والقط ، أما الحيوانات المستأنسة فأهمها الجمل والخراف والماعز والحمير والقليل من الخيول والبقر .

ورغم عدم وجود انهار او بحار فإنه توجد ببعض العيون والبحيرات بعض أنواع الاسماك التي تعش في المناطق الاستوائية ، كما عثر في بعض البحيرات على عدد من التماسيح الصغيرة ويوجد ببعض البحيرات النائية بعض الحشرات البحرية المعروفة باسم الجمبري ويسميها الأهالي بالدود .

ورغم ان واحات فزان تعد من الاماكن النائية وكان المفروض أنها تحتفظ بنقاء السلالات والاجناس التي سكنتها إلا أن الحقيقة ان تلك الواحات كانت تكوّن منذ القدم نقصاً هامة في الطرق التجارية التي كانت تصل سواحل البحر المتوسط بالسفانا الافريقية وكانت في نفس الوقت تقع على الطرق التي تربط وادي النيل بسواحل المحيط الأطلسي ، ولذا فقد كانت فزان كما يقول « ديبوا » Despois « ملتقى للشعوب والطرق » .

وقد نجم عن ذلك ان سكن فزان عدد كبير من القبائل التي ترجع

في أصولها الى سلالات مختلفة . ففي الجهات الشمالية تسكن القبائل التي ترجع لأصول عربية مثل اولاد سليمان الذين يسكنون سواحل سرت وشمال فزان ويمتدون حتى الى سبها وهم يرجعون الى العرب الاوائل من بني هلال وبني سليم ،ومنهم قبائل المقارحة والحساونة الذي تمتد مضاربهم حتى وادي الشاطىء . ويسكن الى جوار القبائل العربية قبائل اخرى ترجع الى اصل بربري ليبي قديم وهي القبائل التي ورد ذكرها في كتب المؤرخين المسلمين الاوائل وقد تعربت بعض هذه القبائل مثل قبائل ورفله بينما ظلت البعض الاخر محتفظاً بلغته الليبيه القديمة .

وتنتمي كل من القبائل العربية والبربرية الشمالية الى سلالة البحر المتوسط ذات البشرة السمراء الفاتحة والوجوه الطويلة المستطيلة والأنوف المستقيمة وهم من البدو الرحل . أما النواحي الجنوبية الشرقية من فزان فيسكنها البتو وهم قبائل سودانية تتكلم احدى اللغات الكوشية وهي التدا والبتو من القبائل الليبية القديمة ولعلهم احفاد التمحو الذين ورد ذكرهم في النصوص الفرعونية ، ويسكن البتو المناطق الواقعة شرق جبل بن غنيمة حتى واحات الكفره وهم من البدو الرحل .

أما المنطقة الغربية من فزان فيسكنها القبائل الشهيرة باسم الطوارق وهم اخلاط من السلالات البيضاء والسوداء مزيج من بربر الشمال والزنوج الذين عاشوا في جنوب فزان وامتزجوا هناك ثم خرجوا في موجات بشرية متعاقبة في فترات متباعدة واستقروا بغرب فزان وهم من البدو الرحل .

ويكثر وسط فزان لاسيما في وادي الاجال السكان المعروفون باسم الفزازنة وهم قوم تظهر على وجوهم ملامح سلالات البحر المتوسط من الأنوف المستقيمة والشعر الخشن والوجه الطويل ، إلا أنهم مع ذلك شديدو السمرة ولعل هؤلاء الفزازنه هم احفاد الجرامنت القدماء وهم

من المزارعين المستقيين . وتعيش الى جوار الفزازنة مجموعتان من ذوي الملامح الزنجية وهم المعروفون باسم الشواشنة اي العبيد إلا أنه انصافاً للحق نقول أنه ليس صحيحاً ان جميع السود الذين بفزان جاءوا في قوافل العبيد فقد جاء الكثير منهم لاسيما أجداد سكان تراغن مع الفاتحين الكانيين الذين جاءوا من تشاد في القرن الثالث عشر الميلادي وفتحوا فزان . (١٠)

والى جوار السلالات السالفة الذكر يوجد بعض السكان الذين يقطنون بعض الواحات الغابية ويعرفون باسم الدوادة وهم قصار القامة ذو ملامح زنجية واضحة ولعل هؤلاء لقوم هم البقايا الذين ظلوا على ممر الدهور من ابناء الذين سماهم الكتاب الكلاسيك بالتروجلودي والذين يظن بأنهم كانوا من ضمن شعوب الاقزام التي سكنت افريقيا قديماً .

ويتكلم اكثر السكان بفزان اللغة العربية باللهجة الليبية ولو ان هناك لغات اخرى يتكلمها بعض السكان هناك، فهناك التبو وهم يتكلمون اللغة التباوية المعروفة باسم التدا ، وهي من فصيلة اللغات الكوشية وهناك اللغة الطارقية وهي احدى اللغات البربرية القديمة ولا زالت حروفها الهجائية المعروفة باسم التفيناغ تستعمل لليوم ، ويتكلم بعض أهل غات لغة الهوسا المنتشرة بين قبائل الهوسا بنجريا ، كما يتكلم أهل غدامس لغة خاصة بهم تعرف بالغدامسية وهي احدى اللهجات البربرية القديمة . ولا زالت رطانة أهل سوكنة معروفة لدى عدد قليل جداً من الشيوخ الكبار السن . أما اللغة الجرامنتية فقد زالت نهائياً من فزان وليبيا ولا يتحدث بها سوى أفراد قبيلة جرمة التي تقطن بالقرب من مدينة نيامي عاصمة النيجر وحتى هؤلاء يتكلمون لغة هي خليط من الجرامنتية والطارقية والهوسا .

ويهمنا بشكل خاص وادي الأجال لا لأن مدينة جرمة الاثرية تقع فيها فقط ، بل لانها ظلت الساحة الرئيسية للجرامنت والمكان الذي مارسوا

فيه نشاطهم الزراعي والحضاري .

تقع وادي الأجال في منتصف فزان تقريباً وتمتد من الغرب الى الشرق قرابة المائتي كيلو متر ما بين خط الطول ١٣° و ١٤° شرقاً كما أنها تقع على خط العرض ٣٠ و ٢٦° شمالاً والوادي عبارة عن اخدود منخفض من الأرض تحده من الناحية الجنوبية سلسلة من الجبال الصخرية تعرف باسم حمادة مرزق بينما تحدها من الناحية الشمالية مرود عالية من الرمال تكوّن الحافة الجنوبية لصحراء اوباري . ويتراوح اتساع الوادي من مكان لاخر ما بين النصف كيلومتر والعشرين كيلومتراً . ومن الملاحظ ان المياه الجوفية تنحدر مع سفوح الجبال الجنوبية من الجنوب الى الشمال وتكون اقرب ما يكون الى سطح الأرض في بطن الوادي ، وكثيراً ما تظهر على شكل عيون او مستنقع او حفر مائية او تنشع على التربة . وعلى هذه المياه الجوفية تقوم الزراعة ، ولا زال السكان يمارسون التقاليد القديمة لرفع المياه من الابار مستعملين نوعاً من الساقية او الشادون الذي هو عبارة عن قربة من الجلد مربوطة بحبل معلق على بكرة مستديرة تتحرك على جذع نخلة وهذا الجذع بدوره مرفوع في الهواء بواسطة خشبتين تثبتان على حافة البئر ويربط الحبل الذي به القربة في حيوان مثل الحمار او الجمل وهو يتحرك جيئة وذهاباً لتنزل القربة ومعها الثقل الى جوف البئر وتعود محملة بالمياه حيث يتناولها شخص آخر ويفرغ محتوياتها في جدول الماء . ولقد بدأ الناس في استعمال الوسائل الحديثة في رفع المياه اذ تقوم مؤسسة البنك الزراعي في منحهم سلفيات مالية لشراء موتورات الديزل . ويزرع الأهالي هناك الذرة والشعير والقليل من القمح وبعض الخضر وأهمها البصل والطماطم أما المحصول الرئيسي للمنطقة فهي التمور ، وتمتد غابات واسعة من النخيل في قلب الوادي ويخترق الوادي طريق يجري الان تعبيده وهو يمتد من مدينة سبها عاصمة فزان قبل الوحده الى بلدة اوباري عاصمة المحافظة المعروفة بهذا الاسم .

وتتناثر في بطن الوادي عدة قرى تمتد من الشرق الى الغرب فتوجد عند اول الوادي من الناحية الشرقية قرية الابيض ثم بلدة بالحارث وتوجد بها قلعة مقامة على تل عال يشرف على الوادي ثم قرية الحمره وقصر خليف التي يوجد بعدها بلدة القلعة وهي مباني عجيبة من الاحجار على شكل أسوار ومساكن وقلاع يقول سكان المنطقة انها كانت مدينة عامرة على عهد سلاطين اولاد محمد في القرن السادس عشر الميلادي ، ثم اطلال قصرين ببا التي توجد قبالها جبانة التناحمة التي ترجع الى عصر الجرامنت في القرن الثالث الميلادي ، ثم بلدة الرجبية ثم قلعة لوركو التي توجد عند ممر باب المكنوسة وهو فتحة في جدار سلسلة جبال حمادة مرزق الصخرية وكانت الدروب التي تصل بين جرمة والجنوب تمر من هذا الممر وكانت قلعة لوركو تحرس هذه الطرق ، ثم بلدة تكرتيبا والقراقرة حيث يوجد في مجاوراتها الجبانية ذات القبور الهرمية ثم بلدة الفقار ثم طوش ثم جرمة ثم الغريفة التي تعد اكثر القرى بوادي الأجال ازدحاماً بالسكان ثم بلدة اوباري عاصمة المحافظة الجوبية .



البحر الابيض المتوسط
تونس
طرابلس
الزاوية
صبراتة
جبل الحفارة
غريان
جادو
جبل نفوسة
يفرن
مصراتة
لبدة
الخمس
خليج سرت
سرت
العقيلة
اجدابية
بنغازي
برقة
الجبل الأخضر
البيضاء
المرج
طوكرة
درنة
طبرق
بردية
امساعد
الجغبوب
جالو (اوجلة)
سرير كلنسيو
غدامس
الحمادة الحمراء
ودان
هون
سوكنة
جبل السوداء
زلة
جبل فزان
وادي الشاطئ
ادري
براك
صحراء اوباري
سبها
اوباري
وادي الاجال
تمسة
زويلة
تراغن
مرزق
وادي برجوج
القطرون
صحراء مرزق
غات
تجرهي
واو الناموس
تازربو
صحراء ربيانة
ربيانة
الكفرة
سرير تيبستي
جبال تيبستي
اركنو
جبل العوينات

NOTES

(1) انظر الى خريطة ليبيا الحديثة

(2) Gautier; The Sahara. The great desert P. 41 (translation New York 1934).

(3) Gautier; ibid P. 39.

(4) Gautier; ibid P. 49.

(5) Augièras; Le Sahara occidental P. 12 — (Société de Géographie, Paris 1919).

(6) Pierre Bellair; Hydrogéologie de la cuvette Fezzanaise P. 13 ff. (dans le Publication d'Institut de recherches Sahariennes de l'Université d'Alger, Mission Scientifique du Fezzân 1944 - 45; la librairie P. Lechevalier Paris VI).

(7) Desio; Sahara Italiano P. 65 ff. (Pub. of the Italian Geographical society) — 1939).

(8) Pierre Bellair; contribution à l'étude de l'hydrogéologie de la cuvette Fezzanaise P. 27 ff. (Publication de l'Institut de recherches Sahariennes de l'Université d'Alger) vol II (1944 - 45).

(9) Despois; Géographie Humaine P. 29 ff. (Publication de l'Institut de recherches Sahariennes de l'Université d'Alger vol III (1949).

(10) ibid P. 35 ff.

الفصل الأول

المراجع والمصادر

ورد الكثير من أسماء القبائل الليبية في النصوص المصرية منذ فجر عصر الأُسرات ،فقد ذكر المؤرِّخ المصري مانيتو Manetho ان الليبيين قد تمردوا على الملك نفر كارع (من ملوك الأُسرة الثالثة) الا انهم ، كما تقول الرواية أَلقوا اسلحتهم لخسوف القمر. وتشير نصوص اخرى ترجع للأُسرة الرابعة ان ملوك هذه الأُسرة قد احرزوا انتصارات على الليبيين ،ولكن يظهر ان تلك القبائل الليبية كانت تعيش في وادي النيل نفسه في النواحي الواقعة جنوب منف وغالباً في الفيوم(١).

ويشير أَحد نصوص الأُسرة السادسة الى غارات الليبيين المسمين بالتمحو على بلاد يام(٢) إذ يقول حرخوف «لقد أَرسلني مولاي للمرة الثالثة الى يام ... وفي طريق واحت Whet وجدت زعيم قوم يام ذاهباً الى أَرض تمح Temeh لتتبع التمحو حتى الركن الغربي للسماء ...»(٢)

وهذا النص دليل واضح على وصول القبائل التي تسكن في الصحراءِ الواقعة غرب النيل حتى الواحات الغربية وإلى وجود صلات ذات صبغة عَدائية بين القبائل الليبية الجنوبية المعروفة باسم التمحو، وربما كانوا هم أَجداد من يسمون اليوم بالتبو وبين قبائل يام النوبية التي كانت تسكن للجنوب من الشلال الثاني.

وتقول بردية هاريس أَن رمسيس الثالث أَهدى قطعتين من أَحجار تمح الواردة من بلاد الواوات للمعابد المصرية، ومن المعروف أَن الواوات اسم لمكان يقع في بلاد تمح(٣) ولعلها الجهة التي بها الواحات التي تبدأْ اسمها بكلمة واو وجمعها واوات مثل واو الناموس والواو الكبير وغيرها، وهي المنطقة الواقعة إلى شرقي فزان وهي جنوب ليبيا التي تعرف لدى

قدماءُ المصريين باسم بلاد تمح او أرض التمحو أو الليبيين الجنوبيين. ويبدو ان النصوص المصرية القديمة كانت تطلق على القبائل المختلفة التي كانت تسكن ليبيا الجنوبية اسم التمحو ويظهر من أشكالهم المميزة في النقوش المصرية المرسومة على جدران المعابد انهم كانوا سمر الوجوه، مجدولي الشعور وفي بعض الأَحيان ذوي لحى.

ولا نعرف على وجه التحديد الدور الذي لعبه الليبيون الجنوبيون خلال عصر غزوات قبائل الربيو والتحنو للحدود المصرية في أَواخر عهد الرعامسة، ويظهر ان الهزائم المتكررة التي لاقتها هذه القبائل على يد الفراعنة قد أَضعفتها مما جعلها فريسة سهلة في يد قبائل المشواشي التي اجتاحت بلادها من جهة الغرب. وتظهر اشكال رجال هذه القبائل في المعابد المصرية وهم يلبسون الملابس المصنوعة من جلود الحيوانات ويتزينون بالريش على رؤُوسهم. ونراهم لأَول مرة في تاريخ الغرب يستعملون الخيول والعربات.

واننا لنرى على جدران الصخور في صحراء جنوب ليبيا الكثير من الأَشكال والرسوم المنحوتة على جدران

صخور الحجر الرملي النوبي وهي تمثل أشخاصاً يلبسون الريش ويحملون القسي والحراب وبعضهم يستعمل العربات والخيول ،وان كنا لا نعرف على وجه التحديد تاريخ هذه الرسوم الا انه من الواضح انها ترجع لنفس عصر ظهور الماشواشي(٤) .

ويظهر أن القرن العاشر قبل الميلاد كان عصراً حافلاً بالأحداث التاريخية في شرق ووسط البحر المتوسط فقد شاهد ذلك الزمن تحرك القبائل اليونانية التي وصلت موجاتها إلى ضفاف الأناضول شمالاً حيث قوضت اركان دولة الحثيين ، كما وصلت أفواج من القبائل الكريتية التي تركت أوطانها عقب هزات أرضية شديدة خربت جزيرة كريت إلى سواحل فلسطين ، كذلك وصل الفينيقيون إلى سواحل لبنان والعبرانيون والآراميون إلى شرق فلسطين ، كما وصلت قبائل المشواشي والليبيون الشماليون إلى الضفاف الغربية لدلتا النيل حيث نشطت القلاع والحاميات المصرية في صد المغيرين .

ورغم أن المصادر الفرعونية المعاصرة لتلك الغزوات

قد ذكرت أَسماء بعض القبائل التي اشتركت في الغارات الا يبدو انها لم تعن بالتفاصيل ،ولذا فلا يمكننا أَن نجزم اذا كانت بينها قبائل من فزان أَم لا .

ولقد وردت أَسماءُ بعض القبائل الليبية في النصوص الكوشية ولكن يظهر ان تلك الأَسماء كانت منقولة من النصوص المصرية القديمة. ويرى « ريزنر » ان الاسرة المالكة الاولى لنباتا وهي الاسرة الخامسة والعشرون الفرعونية انما ترجع باصولها الى الليبيين القدماء(٥) وهو رأي يعارضه « اركل » بأَدلَّة لها وجاهتها(٦).

وقد عثر في جبانة الكرو على الكثير من رؤُوس السهام الليبية مما يوحي بأَن الصلات التجارية ظلت قائمة بين فراعنة كوش والليبيين الجنوبيين ، ومع أَنه وجدت في الجبانات النوبية الكثير من المخلفات التي ترجع لاصول ليبية الا ان الوثائق الكوشية لم تشر الا اشارات مبهمة الى وجود قبائل من الليبيين الجنوبيين الرحل على ضفاف النيل الغربية .

ولا نعرف على وجه التحديد من اين جاءَ أَجداد الملك

النوبي المسيحي سيلكو وان كان من غير المستبعد أن يكون ذلك الملك من أصل ابي جنوبي ،ويعزز وجود المقابر ذات الأَشكال الهرمية التي عثر عليها بفزان الاعتقاد السائد بوجود علاقة سياسية بين نوبيي وادي النيل وليبيي الجنوب.

ورغم ان اسم ليبيا وأسماء بعض القبائل الليبية قد وردت في كثير من النصوص اليونانية القديمة التي ترجع بعضها لعصر مبكر جد ، الا ان هيرودوت المؤرخ الاغريقي يعد أول من ذكر أسماء القبائل الليبية ومواقعها بشيء كثير من التفصيل والاسهاب. فهذا المؤرخ الذي عاش خلال القرن الخامس قبل الميلاد قد زار عدداً كبيراً من الأَقطار ويظهر من كتبه الخمس أنه كان ملمّاً بأَحوال عالمه ،ومن المحتمل أن يكون هيرودوت قد زار برقة حيث كانت تقوم في أيامه خمس مدن إغريقية كبرى أنشأَها المستعمرون اليونان في الأَراضي الليبية. وكانت علاقة الليبيين والاغريق الساكنين بتلك المدن علاقات سلام احياناً وعلاقات حرب أحيانً اخرى ، كانت القوافل تفد من الداخل حاملة معها خامات المواد الأَولية الواردة من أَفريقيا

وكان التجار الاغريق يتطلعون إلى تلك القوافل لا للحصول على تلك المواد فقط ولكن لمعرفة اخبار وجغرافية البلاد الواقعة خلف الصحراء الكبرى ، وكانت صلتهم حسنة ببعض ملوك الدواخل فقد ذكر هيرودوت ان معبد أمون زيوس في سيوه كان يحابي الاغريق ضد الفرس حتى أنه تعرض لسخط وغزوات الأخيرين. ويذكر هيرودوت الطرق الصحراوية التي كانت تربط ضفاف النيل بسواحل المحيط الأطلسي كما أنه يتحدث عن كشوف جغرافية قام بها بعض الليبيين عبر الصحراء الى البلاد التي تعرف اليوم باسم تشاد. ويعد هيرودوت أول من ذكر الجرامنت صراحة من المؤرخين على الاطلاق ، ولو أنه ليس هناك من دليل على قيامه بزيارة بلاد الجرامنت ، وربما يكون قد استقى معلوماته عن أحد التجار الاغريق من سكان المدن الاغريقية الخمس الذين زاروا جرمة.

ويقول هيرودوت في الجزء الرابع الفقرة ١٧٤ من كتابه(٧) :

« وأما في الداخل فيعيش الجرامنت في المنطقة المعروفة

بمنطقة الحيوانات البرية وليست لهم صلات مع غيرهم من الناس وليست لديهم أسلحة وهم لا يعرفون كيف يدافعون عن أَنفسهم ».

ويقول في الجزء الرابع الفقرة ١٨٣(٨):

«وعلى مسيرة عشرة أيام اخرى من اوجله يوجد تل آخر من الملح تتوسطه عين ماءٍ وحولها الكثير من النخيل المثمرة ، ويسمي الأَهالي الذين يسكنون هذه الجهات بالجرامنت ،وهم أُمة كبيرة من الناس . وهم يمارسون العادة التالية في الزراعة : بغطون الأَرض التي تكسوها الأَملاح بطبقة من التربة ثم يبذرون عليها البذور تلك هي وسيلتهم في الزراعة .

والمسافة بين بلادهم وبلاد اللوتوفاجي (طرابلس الغرب) على أَقصر الطرق ثلاثين يوماً .

وهم يقتنون نوعاً من الثيران ترعى وهي تسير القهقرى (إلى الخلف) وذلك لأَن قرونها الطويلة الممتدة للأَمام تمنعها من السير للأَمام عند الرعي وهي تمتاز كذلك بكثافة

وخشونة جلودها وفيما عدا ذلك فانها لا تختلف عن غيرها من الثيران .

ويخرج هؤلاءِ الجرامنت في عربات تجرها أَربعة من الخيول لاصطياد الأَقوام المسمون بالاثيبو تروجلودي من سكان الكهوف . ويعتبر القوم الأَخيرون من اسرع من نعرفهم في العدو وهم يعيشون على أَكل الثعابين والزواحف وليست لهم لغة بل انهم يحدثون أَصواتاً تشبــه حفيف الخفافيش » .

وترجع أَهمية هذا النص الى أَنه أَقدم نص تعرض للجرامنت ، فحسب روايــة هيرودوت كان الجرامنت يعيشون في فزان خلال القرن الخامس قبل الميلاد وكانوا يمارسون الزراعة والصيد كما كانوا يسترقون أَقواماً آخرين أَقل منهم في مدارج الحضارة ، وكان هؤلاءِ الأَخيرون يسكنون الكهوف ، ويمكن من مقارنة النص الثاني بالنص الأَول ان نستنتج السبب في التناقض بين قول المؤرخ في النص الأَول ان الجرامنت ليست لديهم أَسلحة وانهم لا يعرفون كيف يدافعون عن أَنفسهم وبين قوله في النص الثاني

انهم يملكون عربات تجرها أربعة من الجياد وانهم يصيدون بها العبيد التروجلودي. لا بدّ ان المؤرخ الاغريقي قد التبس عليه الأمر في النص الأول فذكر الجرامنت بدلاً من ان يذكر الأثيوبيو تروجلودي.

ويظهر ان الاغريق القدماء كانوا يعرفون الجرامنت، ولربما كانت أساطيرهم تذكر بأنهم يرجعون بأرومتهم الى أصل كريتي أو الى شعوب البحر المتوسط ولقد عبّر الكاتب السكندري ابولونيوس الرودسي Apollonis Rhodes المولود سنة ٢٢٠ ق. م. تلك الروايات الشائعة في أيامه حين كتب في روايته أرجو Argo :

«قتل كافاراس Caphauras احد بحارة السفينة ارجو المدعو كانتو Kan'o وكان كافاراس هو أكبر أبناء فوباس ليساس Phoebus Leceus من محبوبته أكاكاليس Akakallis . وهي نفسها ابنة الملك مينوس. ولقد نفاها والدها إلى شواطيء ليبيا عندما علم بأنها على وشك وضع مولودها الالهي.

وهناك انجبت أكاكاليس المدعو امبليشنيكس Amplishenex الذي أُطلق عليه اسم جراما Garama ولقد احب جراما بدوره الخنثى تريتونيا Tretonia وانجب منها نسمون Nasamon »(٩).

وأما المراجع الفينيقية والقرطاجية فلم يصل إلينا منها شيءٌ يشير إلى العلاقات بين المدن الفينيقية لا سيما قرطاج وجرمة الا بعض الشذرات التي وردت في كتابات الرومان والتي يظهر بأَنهم نقلوها عن القرطاجيين أَو التجار الفينيقيين ، ولعل تدمير قرطاج على يد الرومان على ذلك النحو القاسي الذي يعدُّ احدى مآسي التاريخ قد ذهب بوثائق تلك المدينة التاريخية الكبيرة.

اما الكتَّاب الرومان فيعدّون من المصادر الرئيسية التي نستمد منها معلوماتنا عن الجرامنت لا سيما خلال فترة الحكم الروماني للسواحل الليبية ، ويعتبر المؤرخ الروماني سترابو Strabo of Amesea الذي عاش بين ٦٦ ق.م. و ٢٤ م. أَول الكتَّاب الرومان الذين تحدثوا عن الجرامنت ، فقد سجل ذلك الكاتب في سِفْره الكبير المسمى الجغرافيا

Geography ما يلي : ـ

« اننا لا نعرف شيئاً عن أغلب القبائل التي تسكن ليبيا لأن الجيوش الأجنبية او الرحالة الأجانب قليلاً ما ارتادوا البقاع الداخلية ، كما وأن القليل جداً من سكان تلك الجهات هم الذين يجيئون الى مدننا بالشاطيء ، وحتي هؤلاء القلة لا يذكرون أية اخبار مفصلة عن بلادهم ، وعلى أي حال فانني انقل المعلومات التالية رواية عنهم :

يسكن في أقصى جنوب ليبيا الأقوام المسمون باسم الأثيوبيين ، وإلى الشمال منهم يسكن الجرامنت اغلب الجهات ، والى جوارهم الفاروسي Pharusu والزنوج Nigriti والى الشمال منهم يعيش الجاتولي Gattoli » (١٠) .

وفي مكان آخر من نفس الكتاب يقول :

« تمتد بلاد الليبيين المنحدرين من أرومة فينيقية إلى جبال الجاتولى وفيما وراءَ ارض الجاتولي ، وفي اتجاه مواز له توجد بلاد الجرامنت حيث يوجد ما يسمى بالحجر

القرطاجي Carthagenian Stones ويحكى بأن بلاد الجرامنت تمتد من مسافة تسعة أيام من بلاد الأثيوبيين الذين يعيشون على شاطيء المحيط إلى خمسة عشر يوماً من معبد امون (١١) وهؤلاءِ القوم المسمون بالجرامنت معتدلون في طعامهم وزينتهم ، ويقتني الواحد منهم الكثير من الزوجات ولديهم الكثير من الأبناءِ ، ويُعنى ملوكهم بتربية الخيول حتى انهم ليقيمون سنوياً حفلاً يحضره الملك ليشاهد تعشير الخيول التي تلدلهم سنوياً حوالي الألف مهر » .

ويعد ما كتبه المؤرخ الروماني بليني الذي عاش ما بين ٢٣ أو ٢٤ م ، و ٧٨ م ، مرجعاً هاماً للاحتكاكات التي حدثت بين الرومان والجرامنت خلال فترة حكم الأمبراطور الروماني ــ فسبازيان Vespasian . ويرجع الى بليني الفضل أيضاً في سرد أخبار حملة رومانية قديمة حدثت في عهد اغسطس سنة ١٩ ق.م . ولا نعرف على وجه التحديد السبب الذي من أجله لم يذكر سترابو أنباءَ هذه الحملة ضمن ما ذكر من أخبار الليبيين والرومان ، ولعله لم يذكر

أَنباءَ هذه الحملة إما لعدم أَهميتها واما لأَن الحملة فشلت في احتلال جرمة ، وهو أَمر تؤكده الحقائق الأَثرية والتاريخية ويقول بليني في كتابه التاريخ الطبيعي Natural History .

« تقع بلاد الجرامنت على مسافة اثني عشر يوماً للغرب من واحة اوجله(١٢) .

ويقول في نفس الكتاب عند سرد أَنباء الحرب بين الرومان والجرامنت(١٣) :

« في ذلك الاتجـاه تقع أَرض فزانيا (فزان) التي استولينا عليها وفتحناها بقوة أَسلحتنا اذ غزونا مدن أليلي Alele وسلابـــا Cillaba وكـــذلــك سيـــدانوس Cydanus (غدامس) الموجودة قبلة صبراته . ومن هذه النقطة تبدأ سلسلة من الجبال تمتد لمسافة طويلة من الشرق الى الغرب. ولقد اطلق عليها الرومان جبل السوداء وذلك نسبة للونها الذي اكتسبته بفعل العوامل التكتونية او نتيجة لاحتراقها بفعل أشعَّة الشمس . وخلف هذا الجبل تمتد الصحراءُ التي تقع على اطرافها الشمالية « ماتلجـا » Matelga المدينـــة الجرامنتية ثم دبريس Debris حيث يوجد نبع ماءٍ يطلق

ماءً ساخناً لدرجة الغليان في منتصف الليل بينما يطلق ماءً في برودة الثلج في منتصف النهار ، وكذلك مدينة جراما Garama الشهيرة عاصمة الجرامنت .

لقد استولت القوات الرومانية علـى كافة النواحي المذكورة ، وكُلِّل « كورنيليوس بالبوس » باكاليل النصر لفوزه في تلك الغزوات فزفَّ في عربة النصر وحصل هو وعمه بالبوس الكبير على شرف الجنسية الرومانية لأنهما لم يكونا من مواليد روما بل كانا اجنبيين من مدينة قادس .

ومما هو جدير بالذكر انه رغماً من ان السلطات الرسمية الرومانية لم تدوِّن في سجلاتها الرسمية الا اسماءَ المدن التي ذكرناها إلا ان بالبوس قد حمل في حفلات النصر شعارات البلاد والمدن على الترتيب التالي :-

« مدينة تابيديو Tabidio - قبيلة نيترى Niteri - مدينة نيغي جميلة Neghigemela - قبيلة بابيوم Bubeium - قبيلة أَنيبي Enipi - مدينة ثبن Thuben - جبل السوداءِ ، مدن نيتيرن Nitirun - رابسا Rapsa - قبيلة

ديسيرا Discera مدينة دبريس Debris، ـ وادي ناثابر Nathabar ـ مدينـــة تابساجو Tapsago ـ قبيلة ناناجـــي Nannagi ـ مدينة بون Boin مدينة بجي Pege ـ وادي داسيباري Dasibari ـ وكـــذلك المدن المجاورة التالية : باراكو Baraco وبالوبا Baluba والاسي Alasi وبالســا Balsa وجولي Goli وماكسالا Maxula وزيزامــا Zizama وجبل جيري أو غيري Gyri وهي التي يظهر من اسمها ان بها الأحجار الكريمة المعروفة .

والى يومنا هذا لا يوجد درب مطروق يصل ساحل البحر ببلاد الجرامنت لأن دلك الجنس الملعون قد دأب على طمر الآبار الواقعة على الطرق المؤدية الى بلادهم ، هذا علماً بأن هذه الآبار من السهل حفرها نظراً لقرب المياه الجوفية من سطح الأرض .الا انها تتطلب معرفة الأماكن التي يمكن العثور فيها على المياه .

وفي خلال الحروب التي خضنا غمارها في هذه الأيام ضد أهالي مدينة اويا تحت قيادة الأمبراطور فاسبازيان عثر الرومان على طريق اقصر بأربعـــة أيام عن الطريق

المعروفة ، وقد اطلق على هذا الطريق الجديد اسم الطريق الواقع خلف الرأس الصخري » .

وتظهر عناية جغرافيي الرومان بتقصي ابناءَ البلاد المحيطة بعالمهم في مؤلفاتهم الجغرافية التي حوت الكثير من الحقائق ، فتجد أَن الكاتب بومبونيس ملا Pomponius Mela الذي ولد في سنة ٤٠ م يذكر في كتابه De Situ Orbis (١٤) .

« و يملك الجرامنت نوعاً من الثيران تميل برؤوسها للجنب عندما ترعى وذلك لأَن قرونها الطويلة الممتدة للخارج تمنعها من أن تتجه برؤوسها مستقيمة للأَرض .

وهم يعتبرون النساءَ متاعاً مشاعاً بينهم ويعتبرون الأَبناءَ الذين يتوالدون من مثل هذا الجماع أَبناءً لأَكثر الرجال الذين جامعوا امهاتهم شبهاً » .

ويعدّ بطليموس الجغرافي الذي عاش بالاسكندرية خلال القرن الثاني بعد الميلاد من أَهم الكتَّاب الذين تكلموا عن البلاد الواقعة في الصحراءِ الكبرى ومن ضمنها فزان ، فقد ذكر في كتابه الجغرافيا المعلومات التالية :—

«في دواخل ليبيا فيما وراء منابع سينيفس Cinyphus (وادي كعام) توجد المدن التالية : فانياس Vanias ، سابـــاء Saba (سبهـــا) بديرم Bedirum ، جـــاراما Garama المدينة الرئيسيـــة . . ولا تقل المعلومات التي دوّنها المؤرخون من العرب شأناً عن ما كتبه الرومان ، بـــل ذكر كتّـــاب العرب تفاصيـــل أوفـــى وبيانات أدق ، ولا غرو فقد كانت الطبيعة الجغرافيـــة لفزان تماثل الطبيعـــة الجغرافيـــة جزيـــرة العرب سواء في التضاريس أو الطقس .

ويُعدُّ ابن عبد الحكم المتوفي بمصر عام ٨٧١ م . أقدم الكتّاب العرب الذين ذكروا بشيءٍ كثير من التفصيل أحوال فزان خلال الفتح العربي الأول لشمال أفريقيا والذي تقع حوادثه خلال القرن السابع الميلادي(٦) .

والذي يهمنا في كتاب ابن عبد الحكـــم هو الجزءُ الخاص الذي يصف فيه الكاتب أنباءَ فتح المسلمين بقيادة عقبة بن نافع الفهري لفزان في القرن السابع الميلادي .

«حدثنا عبد الملك بن مسلمة ، حدثنا ابن لَهيعَة عن

يزيد بن أَبي حبيب قال: غزا معاوية بن حديج افريقيا ثلاث غزوات ، أَما الأُولى فكانت سنة أَربع وثلاثين قبل قتل عثمان ، وأَعطى عثمان مروان الخمس من تلك الغزوة وهي غزوة لا يعرفها كثير من الناس ، والثانية سنة أَربعين والثالثة سنة خمسين ، ثم قال: ثم خرج الى المغرب بعد معاوية بن حديج عقبة بن نافع الفهري سنة ست وأَربعين ومعه بسر بن أرطا وشريك ابن سمي المرادي فأَقبل حتي نزل بمغمداس من سرت . وكان توجه بسر إليها كما حدثنا يحى بن عبد الله ابن بكير عن الليث بن سعد سنة ست وعشرين من سرت فأَدركه الشتاء وكان مضعفاً ، وبلغهُ أَن أَهل ودَّان قد نقضوا عهدهم ومنعوا ما كان بسر بن أرطا فرضه عليهم . وكان عمرو بن العاص قد بعث إليها بسراً وهو محاصر لأَهل طرابلس ، فافتتحها ، فخلف عقبة بن نافع جيشهُ هناك واستخلف عليهم عمرو بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي ثم سار بنفسه ومن خف معه اربعمائة فارس وأَربعمائة بعير وثمانمائة قربة حتى قدم ودَّان فافتتحها ، وأَخذ ملكهم فجدع أذنه ، فقال لِمَ فعلت هذا بي ، وقد عاهدتني ؟ فقال عقبة: فعلت هذا بك

أَدباً لك ، اذا مسست أذنك ذكرته ، فلم تحارب العرب .

واستخرج منهم ما كان بسر فرضه عليهم ثلاثمائة رأس ، وستين راساً . ثم سأَلهم عقبة : هل من ورائكم أحد ؟ فقيل له : جرمة وهي مدينة فزان العظمى ، فسار إليها ثماني ليالٍ من ودَّان ، فلما دنا منها أرسل فدعاهم إلى الاسلام فأَجابوا ، فنزل منها على ستة أَميال . وخرج ملكهم يريد عقبة وأَرسل عقبة خيلاً فحالت بين ملكهم وبين موكبه فأَمشوه راجلاً حتى أَتى عقبة وقد لغب وكان ناعماً فجعل يبصق الدم فقال له : لِمَ فعلت هذا بي وقد أَتيتك طائعاً ؟ فقال عقبة : ادباً لك اذا ذكرته لم تحارب العرب . وفرض عليهم ثلاثمائة عبد وستين عبداً ، ووجه الرجل من يومه ذلك إلى المشرقِ ثم مضي على جهته من فوره ذلك إلى قصور فزان فافتتحها قصراً قصرا حتي انتهى إلى أَقصاها . فسأَلهم هل من ورائكم أَحداً ؟ قالوا نعم أَهل خاور ، وهو قصر عظيم على رأْس المفازة في وعورة على ظهر جبل وهو قصبة كوار . فسار إليها خمسة عشرة ليلة ، فلما انتهى إليها تحصنوا فحاصرهم شهراً فلم يستطع لهم شيئاً . فمضى أَمامه على قصور كوار

فافتتحها حتى انتهى إلى أَقصاها وفيها ملكها فأَخذه فقطع اصبعه فقال : لم فعلت هذا بي؟ قال : أَدباً لك إذا نظرت إلى اصبعك لم تحارب العرب . وفرض عليهم ثلاثمائة عبد وستين عبداً . فسأَلهم هل من ورائكم أَحد؟ فقال الدليل ليس عندي بذلك معرفة ولا دلالة فانصرف عقبة راجعاً ، فمر بقصر خاور ، فلم يعرض له ولم ينزل بهم وسار ثلاثة أَيام فأَمنوا مدينتهم . وأَقام عقبة بمكان اسمه اليوم ماء فرس ولم يكن به ماء فأَصابهم عطش شديد أَشرف منه عقبة وأَصحابه على الموت فصلى عقبة ركعتين ودعا الله ، وجعل فرس عقبة يبحث بيديه الأَرض حتى كشف عن صفاة فانفجر منها الماءُ فجعل الفرس يمص ذلك الماءُ . فأَبصره عقبة فنادى في الناس ان احتفروا فحفروا سبعين حسياً فشربوا واستقوا فسمي ذلك المكان ماءَ فرس . ثم رجع عقبة إلى خاور من غير طريقه التي كان أَقبل منها فلم يشعروا به حتى طرقهم ليلاً ، فوجدهم مطمئنين قد تمهدوا في اسراتهم فاستباح ما في المدينة من ذرياتهم وأَموالهم وقتل مقاتليهم . ثم انصرف راجعاً فسار حتى نزل بموضع زويلة اليوم ، ثم

ارتحل حتى قدم على عسكره بعد خمسة أشهر ، وقد جمت خيولهم وظهورهم فسار متوجهاً إلى المغرب وجانب الطريق الأعظم وأخذ إلى ارض مزاته فافتتح كل قصر بها ثم مضي إلى صفر فافتتح قلاعها وقصورها ...(١٧)

أما جغرافيو العرب، الذين تكلموا عن فزان خلال القرن التاسع فأولهم هو أحمد بن أبي يعقوب اسحاق بن جعفر ابن وهب بن واضح الشهير باليعقوبي المتوفي سنة ٢٨٢ هـ الموافق ٨٩٥ م . ولد هذا الكاتب في أصبهان بفارس ودوّن في كتابه المسمى بالبلدان طائفة من أخبار ووصف بلدان شمال أفريقيا نقتطف منها ما يلي(١٨) :

«ومن أعمال برقة المضافة إليها ودان وهو بلد يؤتى من مفازة وهو مما يضاف إلى عمل سرت ، ومن مدينة سرت إليه مما يلي القبلة خمس مراحل وبه قوم مسلمون يدعون أنهم عرب يمن وأكثرهم من مزاته وهم الغالبون عليه ، واكثر ما يحمل منه التمر فان به أصناف التمور وانما يتولاد رجلاً من أهله وليس له خراج .

ووراء ذلك بلد زويلة مما يلي القبلة وهم قوم مسلمون

أَباضية كلهم يحجون البيت الحرام ، واكثرهم روايــة ويخرجون الرقيق السودان من الميريين والزغاويين والمرويين وغيرهم من أَجناس السودان لقربهم منهم وهم يسبونهم ، وبلغني أَن ملوك السودان يبيعون السودان من غير شيءٍ ولا حرب . ومن زويلة الجلود الزويلية وهي أَرض نخل ومزرع ذرة وغيرها وبها أَخلاط من أَهل خراسان ومن البصرة والكوفة .

ووراء زويلة على خمس عشر مرحلة مدينة يقال لها كوار بها قوم من المسلمين من سائر الاحياءِ ، أَكثرهم بربر يأْتون بالسودان ، وبين زويلة ومدينة كوار وما يلي زويلــة إِلى طريق اوجلة واجدابية قوم يقال لهم لمطة أَشبه شي بالبربر وهم أَصحاب الدرق اللمطية البيض .

وجنس يعرف بفزان أَخلاط من الناس لهم رئيس يطلع فيهم وبلد واسع ومدينة عظيمة وبينهم وبين مزاته حرب لافح أَبداً .

ومن آخر عمل برقة من الموضع الذي يقال له تورغة

الى طرابلس ست مراحل، وينقطع ديار مزاته من تورغة ويصير في ديار هوارة، فأَول ذلك ورداسة ثم لبدة وهي حصن كالمدينة على ساحل البحر. وهوارة يزعمون أَنهم من البربر القدم وأَن مزاته ولواته كانوا منهم وانقطعوا عنهم وفارقوا ديارهم وصاروا الى أَرض برقة وغيرها، وتزعم هوارة انهم قوم من ليمن جهلوا أَنسابهم. وبطون هوارة تتناسب كما تتناسب العرب فمنهم بنو اللهان ومليلة وورسطفة فبطون اللهان وبنو درصا وبنو مرزبان وبنو ورفله وبنو مسراته.

ومنازل هوارة من آخر عمل سرت إلى طرابلس.... الخ».

اما أَحوال فزان وجغرافيتها في القرن العاشر فنجدها في كتاب مروج الذهب لمؤلفه أَبو الحسن المسعودي المتوفي حوالي سنة ٩٥٦ م. ومما ذكره ذلك الكاتب تهمنا على وجه الخصوص الجملة التالية(١٩):

«... أَما غير هؤُلاءِ من الحبشة الذين قدمنا ذكرهم ممن امعن في المغرب مثل الزغاوة والكوكو والقراقر ومديدة

ومريس والمبرس والملانة والقوماطي وذويلة والقرمة او الخرمة فلكل من هؤُلاءِ وغيرهم من انواع الأَحابيش ملك ومملكة » .

ويقدم لنا كاتب المغرب العربي أَبو عبدالله بن عبد العزيز بن محمد بن أَيوب بن عمرو الشهير بالبكري المتوفي حوالي ١٠٩٤م ، صورة للأَوضاع السياسية والأَحوال الجغرافية لبلدان شمال افريقيا والصحراءِ الكبرى في خلال القرن الحادي عشر وذلك في كتابه «المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب»(٢٠) .

«ومن أَراد الطريق من نفوسه إلى مدينة زويلة فانه يخرج الى مدينة جادوا ثم يسير ثلاثة أَيام في صحراءَ ورمال إلى موضع يسمى تيري وهو في سفح جبل به آبار كثيرة ونخيل ثم يصعد في ذلك الجبل فيمشي في صحراءَ مستوية نحو أَربعة أَيام لا يجد ماء ثم ينزل على بير يسمى اودري ومن هناك يلقى جبالاً شامخة تسمى تارغين يسير الذاهب فيها ثلاثة أَيام يصل بعدها إلى بلد تسمى تامرتا به نخل كثير يسكنه بنو فلدين وفزانه وعندهم غريبة وهو أَن السارق اذا سرق عندهم كتب كتاباً يتعارفونه فلا

يزال السارق يضطرب في موضعه ذلك حتى يقر ويرد ما أَخذ ولا يسكن عنه ما به حتى يمحى ذلك الكتاب ، وتسير من هذه البلد إلى بلد تسمى سباب يومين وهو بلد كثير النخيل وكذلك الذي قبله ، وأَهل سباب يزرعون النبات الذي يتكون منه الصبغ المعروف بالنيل ، وتسير من سباب في صحراءَ مستوية لا شيءَ فيها غير الرمل الرقيق لا يشوبه حجر ولا مدر ، اذا رأَى الرائي العظم في تلك الصحراءِ من بعيد حسبه قصراً ، وان رأَى بعرة حسبها رجلاً ، ومن هذه الصحراء إلى زويلة يوم وهو نحو ذلك من مدينة اجدابية .

وهي مدينة غير مسورة في وسط الصحراء وهي أَول حد لبلاد السودان ، وبها جامع وحمام وأَسواق . ويجتمع بها الرفاق من كل جهة ومنها يفترق قاصدهم وتتشعب طرقهم وبها نخيل وبساط للزرع يسق بالابل . ولما فتح عمرو برقة بعث عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين، وبزويلة قبر دعبل بن علي الخزاعي ، قال الشاعر بكر بن حماد :

الموت غادر دعبلا بزويلة
وبأَرض برقة أَحمد بن خصيب

وبين زويلة واجدابيا أَربعة عشر مرحلة . ولأَهل زويلة حكمة في احتراس بلدهم وذلك أَن الذي عليه نوبة الاحتراس يسعى على دابة يشد عليها حزمة حطب كبيرة من جرايد النخيل تنال سعفها الأَرض ثم يدور بها حول المدينة فاذا أَصبح من الغد ركب ذلك المحترس ومن يتبعه على جمل السروج ودارا بالمدينة فان رؤا اثراً اتبعوه حتى يدركوه أَينما توجه ، لصاً كان أَو عبداً او أَمة أَو بعيراً... الخ .

وزويلة من طرابلس بين المغرب والقبلة ، ويجلب من زويلة الرقيق الى ناحية افريقيا وما هنالك ومبايعاتهم بثياب قصار حمر . وبين زويلة وبلد كانم أَربعون مرحلة وهم وراءَ صحراء زويلة ، لا يكاد أَحد يصل إليهم ، وهم سودان مشركون ، ويزعمون أَن هناك قوم من بني أَمية صاروا إليهم عند محنتهم بالعباسيين وهم على زي العرب وأَحوالهم . وبين زويلة ومدينة سبهى مسيرة خمسة أَيام وهي مدينة

كبيرة بها جامع وأَسو ق . وبين مدينة سبهى (٨٥) ومدينة هل مثل ذلك ، وهي مدينة عامرة كثيرة النخل وعيون الماء ومن مدينة هل إلى مدينة ودان يوم وبها قلعة حصينة ، وللمدينة دروب وهي مدينتان بها قبيلتان من العرب سهميون وحضرميون وتسمى مدينة السهميين « دلباك » ومدينة الحضرميين مدينة « بوصي » وجامعهما واحد بين الموضعين ، وبين القبيلتين تنازع وتنافس وقد أَدى ذلك بهم مراراً إلى القتال وعندهم فقهاء وقراء وشعراء وأَكثر معيشتهم من التمر ولهم زرع يسقونه بالنضح .

ومن مدينة ودان إلى مدينة تاجرفت ثلاثة أَيام وهي مدينة آهلة بها جامع يسكنها أَهل ودان والتمر بها كثير واكثر أَجناسه البرني .

ومنها يخرج إلى مدينة سرت وبينها وبين زويلة مسيرة اثني عشر يوماً وبينها وبين مدينة ودان مثل ذلك وهي متوسطة بينهما زويلة بغربيها وودان بشرقيها هكذا قال محمد .

والذي مر هنا من ذكر المسافة بين تاجرفت وزويلة

أَربعة عشر يوماً على الطريق الأَقصر ومن تاجرفت إلى الفسطاط تسع وعشرون مرحلة.

وطريق آخر من زويلة إلى تاجرفت ومن زويلة إلى مدينة تمسي (٨٦) يومان ومدينة تمسي كبيرة بها جامع وأَسواق يسيرة، ومنها إلى مدينة زلهي (٨٧) ثمانية أَيام في صحراء وفي وسط الطريق منزل لأَهل ودان.

ومدينة زلهي كبيرة واسعة بها جامع ولها نخل كثير، وعين ماءٍ يسكنها مزاته، ثم تمشي ستة أَيام إلى محص بركانة ثم إلى الهروج وهو قصر قدخرب يجاوره جب وحوله سبخة، وبينه وبين سرت خمس مراحل، ثم إلى مدينة اجدابية مرحلة ثم منها ثلاثة أَيام إلى قصر زيدان، ثم تمشي أَربعة أَيام إلى مدينة أَوجله وهي مدينة عامرة كثيرة النخل واوجلة اسم الناحية واسم المدينة الزافية واوجلة قرى كثيرة بها نخل وشجر كثير وفواكه وبمدينتها مساجد وأَسواق ثم أَربعة ايام إلى مدينة تاجرفت.

ومن سلك من طرابلس إلى ودان فانه يسير في بلد هوارة نحو الجنوب في قياطين وبيوت شعر وهناك

مرئيات ومنازل الى قصر بن ميمون وذلك كله من عمل طرابلس ، ثم من قصر بن ميمون ثلاثة أيام إلى صنم من حجارة مبني على ربوة يسمي كرزة ومن حواليه قبائل البربر يقربون له القرابين ويستشفون به من اداويهم ويتبركون به في أموالهم إلى اليوم . ومن هذا الصنم إلى ودان مسيرة ثلاثة أيام » .

ويظهر ان المعلومات الجغرافية عن الصحراء الكبرى كانت قد تكاملت لدى العلماء العرب في القرن الثالث عشر الميلادي حتى ان حولياتهم قد حوت الكثير من المعلومات عن فزان وغيرها من أقطار الصحراء فنجد شهاب الدين بن عبد الله الشهير بياقوت الحموي المتوفي سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م) يذكر في كتابه معجم البلدان تحت حرف الفاء (فزان) ما يلي(٢١) :-

«فزان بفتح أوله وتشديد ثانيه وآخره نون ولاية واسعة بين الفيوم وطرابلس الغرب ، وهو في الاقليم الأول وعرضه احدى وعشرون درجة ، قيل سميت بفزان بن حام ابن نوح عليه السلام : بها نخل كثير وتمر كثير ومدينتها

زويلة السودان والغالب على أَلوان أَهلها السواد وقد ذكرهم جرير في شعر له فقال :

قفراً تشابه آجال النعام به   عبيداً تلاقت به فزان والنوبُ

اما محمد بن عبد الله الشهير بالتيجاني المولود في تونس ٧٠٦ ه أَو ١٢٧٥ م فقد تعرض في كتابه لذكر فترة مهمة من تاريخ فزان وهي فترة انهيار سلطنة زويلة في القرن الثاني عشر الميلادي وسقوطها نهائياً سنة ١١٧٤ م(٢٢).

وتعتبر الفترة المحصورة بين القرن الثالث عشر والقرن الخامس عشر الميلاديين من اشد فترات تاريخ فزان غموضاً لعدم وجود الوثائق أَو الكتب التي تشير لهذه الفترة ، ثم نجد المؤرخ الطرابلسي الشهير المعروف بابن غلبون يؤرخ فيما يؤرخ عن تاريخ ليبيا خلال فترة الحكم العثماني الأَول وعن الأَحداث التي تمت في فزان خلال القرن السادس عشر أَثناءَ الصراع بين العثمانيين واسرة أَولاد محمد الفاسي حكام فزان والتي انتهت باستيلاءِ العثمانيين على البلاد وضمها نهائياً لولاية طرابلس الغرب ، ويعد كتابه « التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأَخبار »

أهم المراجع لتلك الفترة. كما ان كتاب المؤرخ الليبي المعروف «النائب» يعد تتمة لفصول الكتاب الأول اذ انها تحكي أحداث القرن التاسع عشر حتى بداية العهد العثماني الثاني بليبيا سنة ١٨٣٥م. وإلى جوار المراجع السالفة الذكر قدم الرحالة الاوربيون الذين بدءوا في ارتياد الصحراءِ الكبرى منذ أوائل القرن التاسع عشر صوراً حية لأحوال فزان، بل قام بعضهم صفحات تحكى حقيقة الحال في فزان خلال مدة زيارتهم وقدم بعضهم وصفاً دقيقاً للبلاد التي زاروها مدعمة بالرسوم.

ولم تكن الغاية من اختراق المستكشفين الاوربيين للصحراءِ الكبرى في لقرن الثامن عشر الميلادي الوصول إلى واحات الصحراء، بل كان الغرض منه الوصول الى البلاد الغنية الواقعة في منطقة السافانا الافريقية والتي فشلوا في الوصول إليها عن طريق السواحل الغربية لافريقيا الوسطى، ذلك ان الغابات والشلالات والأوبئة قد وقفت حائلاً دون وصول المستكشفين من الساحل إلى الداخل. فأراد الاوربيون أن يجربوا طريق الصحراءِ الكبرى وهو

الطريق الـذي سبق وان وصفه لهـم الكاتب اللاتيني ليوافريكانوس Leo Africanus وهو كاتب عربي أُسر واعتنق الكاثوليكية في القرن السادس عشر الميلادي ودوّن للبابا ليو العاشر كتاباً عن داخل القارة الافريقية ، وكان ما كتبه عن الذهب والثراء الموجود بتمبكتو وغانة مثار خيال الكثير من الكتّاب والمستكشفين .

ويعد المستكشف الالماني هورنمان Hornemann الـذي كان يعمل لحساب الجمعية الجغرافية البريطانية المعروفة باسم British Association أَول من وصل إلى مرزق سنـة ١٧٩٨ م . مخترقـاً الصحراءَ الكبرى من القاهرة . وقد وصف هورنمان أَنباءَ رحلته وصفاً دقيقاً في التقرير الذي بعث به إلى الجمعية بلندن والذي أَرسله من طرابلس الغرب سنة ١٧٩٩(٢٣) وقد انقطعت أَخبار هورنمان بعد أَن قام برحلته الثانية التي غادر فيها مرزق قاصداً استكشاف بحيرة تشاد ، والمظنون انه قتل أَو مات في الطريق .

ولما كان تمويل مثل هذه الرحلات عبئاً ثقيلاً على الهيئات والأَفراد فقد قامت الحكومة البريطانية باعداد

رحلة سنة ١٨١٩ أرسلت فيها الكابتن جوزيف ريتشي Joseph Ritchie والملازم فرانس ليون Francis Lyon الى مرزق حيث توفى الأول بالحمى غير أن الثاني تمكن من زيارة زويلة والقطرون واضطر للرجوع لنفاذ مؤنته وقد سجل Lyon وصفاً لكل من مرزق وزويلة في كتابه الذي أصدره بلندن سنة ١٨٢١(٢٤).

وتبعت ذلك رحلة البعثة البريطانية التي كان من أعضائها الكابتن كلابرتون Clapperton والطبيب اودني Oudney والميجر دنهام Denham سنة ١٨٢٢. ورغماً عن أن هذه البعثة قد لاقت في مبدأ امرها بعض الصعوبات الا انها نجحت بفضل استعداداتها من ان تقوم برحلة طويلة وصلت فيه إلى البلاد الواقعة حول بحيرة تشاد، ثم رجعت ثانية من نفس الطريق الذي جاءت منه عبر الصحراء الكبرى وواحات فزان إلى طرابلس الغرب سنة ١٨٢٥ بعد أن فقدت أحد أعضائها الذي توفي من الحمى وهو «اودني».

وترجع أهمية رحلة هذه البعثة الى أنها أول بعثة

اوروبية زارت مدينة جرمة القديمة ، ويظهر مما كتبه هؤلاء الرحالة انهم كانوا يجهلون تماماً وجود دولة ذات حضارة في الصحراء مما جعلهم يعزون الآثار التي وجدوها هناك إلى الرومان(٢٥).

وانا لنقدم بعض السطور التي كتبها الطبيب اودني في ذكر ما وصفه لتلك الزيارة :ـ

«وفي حوالي الساعة الحادية عشر وصلنا إلى جرمة وهي مدينة متسعة أوسع من اية قرية اخرى بالوادي ، ولكن كانت الجدران والمنازل قديمة تظهر عليها آثار الزمن.

وانتظرنا في منزل القاضي حتى وصلت قافلتنا. وقد زارنا بعد فترة قصيرة الشيخ مصطفى بن يوسف وكان رجلاً مسناً ذا سحنة فزانية قاتمة مستقيم الأَنف وكانت شفتاه غليظتان لحد ما ، ولكن فمه لم يكن واسعاً وكان شعره اسوداً ويظهر من شكل شعر ذقنه أَنه كان شعراً مجعداً. كان أَجداده من سكان هذه المدينة ويمكن أَن تعتبر ملامحه الشكل الفزاني الأَصيل.

الاثنين ١٧ يونيو سنة ١٨٢٢ : دوَّنا في مذكراتنا

اماكن الكثير من الكنابات التي لم يستطع الأَهالي فك طلاسمها ، ولقد أَخذن اليوم الشيخ مصطفى لزيارة مبنى قال عنه انه فريد من نوعه بالمنطقة . وعندما وصلنا تملكنا العجب ! وجدنا أَمامنا مبنى أَقامه الرومان . ولم نجد عليه او حوله أَية كتابة لاتبنية مدونة رغم اننا قد قلبنا الكثير من الأَحجار المتناثرة حوله ولم نجد سوى بعض الحروف التي يبدو انها دونت حديثاً والتي تشبه لحد ما الحروف الاوربية ، ولقد ظننا بأَنها كتبت بواسطة أَحد الرحالة الاوربيين الذين زاروا تلك المنطقة منذ عهد قريب ، ولقد ظننا في مبدأ الأَمر انه هو هورنمان Hornemann ، ولكن لم يكن لدينا أَدنى دليل على وصوله الى هناك . ولأَقول الحق اننا اخطأْنا في الظن بأَن تلك الحروف كانت اوربية اذ لم تكن سوى حروف، كتابة الطوارق ، ويبلغ ارتفاع هذا هذا المبني حوالي اثني عشر قدماً وعرضه ثمانية أَقدام . وقد بنيت بالحجر الرملي لمنتظم ، والذي قطع من الجبال المجاورة. أَما جوفه فمصمت مليء بأَحجار صغيرة متماسكة بملاط . ويقوم هذا المبنى على بعد ثلاثة أَميال من جرمة وعلى بعد حوالي الربع ميل من قاعدة الجبل . ويبدو بأَن

هذا المبني اما ان يكون مدفناً أو شاهداً » .

ويعد الرحالة الالماني بارت Barth من أهــم الذين زاروا هذه المنطقة سنة ١٨٥٠ فقد ذكر في كتابه « Voyage et decouvertes dans L'Afrique Septentrionale et Central » تفاصيل كثيرة عن الكثير من الآثار الموجودة بالمنطقة وكان لكتابه هذا الفضل في قيام البعثة الايطالية التي جاءت فيما بعد في سنة ١٩٣٤ باجراء حفريات في هذه المنطقة . ولقــد حاول الرحالة الفرنسي دوفيرييــه Duveyrier عمل دراسة كاملة عن تلك المنطقة سنــة ١٨٥٩ م . ويعــد كتابه أول كتاب علمي دون عن المنطقة (٢٦) .

وترجع أهمية كتابه الى أنه تمكن من التمييز بين الجرامنت وقبائل الطوارق كما انه حاول أن يضع هيكلاً لتاريخ فزان في حدود المعلومات التي كانت لديه في ذلك الوقت .

وتعد الرسوم الصخرية او اللوحات التي تركها الأقدمون على جدران الصخور من المراجع المهمة التي نعتمد عليها لحد بعيد في رسم صورة الحياة بفزان من عصور ما قبل

التاريخ حين كانوا يسطرون على سطح الصخور التي عاشوا بجوارها مظاهر حياتهم اليومية والحيوانات التي عاشوا معها بكل أمانة ودقة وسطروا بعضها عن طريق الحز بآلة حادة او بالرسم بالألوان سواءُ باستعمال ألوان الشخر المختلفة لاظهار الأَشكال او باستعمال الأَصباغ الملونة . وقد بدأت عناية العلماءُ بتسجيل هذه الرسوم بفزان منذ سنة ١٩٣٢ حين قام العلامة الأَلماني فروبينيوس Frobenius بتسجيل الرسوم التي عثر عليه في وادي متخندوش والورير وتبني ابتير وهي الأَودية التي تصب في وادي برجوح الواقع للغرب من مرزق . وتعد البحوث التي قام بها البروفسور الايطالي جرزيوزي أروع ما تم في هذا الحقل . اذ قام ذلك العلامة بعدة زيارات لمناطق مختلفة من فزان من سنه ١٩٣٣ حتي الآن وقام خلالها باجراءِ عدة دراسات لخَّصها في كتابه « Rock Art in The Libyan Sahara » ويقسم البروفسور جرزيوزي الرسوم الصخرية إلى عصور مختلفة وهي :

١ ـ رسوم نقشت خلال عصر الصيادين وهي التي تمثل الحيوانات المتوحشة والحيوانات البرية التي كان

الصيادون يقومون بصيدها ، وتشمل هذه الرسوم أَيضاً مناظر تمثل الصيادين الذين يشبهون رجـال البوشمان القصار القامة ويرى جرزيوزي أَن أَقدم هذه الرسوم هي التي تمثل الحيوانات البحرية مثل فرس البحر والتمساح الحيوانات التي كانت تعيش في فزان عندما كان مناخها شبيهاً بمناخ المناطق الاستوائية اليوم(٢٧) أَي قبل ستة آلاف سنة تقريباً. ويرى البروفسور جرزيوزي أَن أَحسن الأَمثلة لذلك هي النقوش التي عثر عليها في وادي متخندوش .

٢ ـ رسوم نقشت خلال عصر الرعاة وهي فترة طويلة من الزمن يظهر فيها الرعاة وهم يقودون قطعاناً من الأَبقار الطويلة القرون الشبيهة بالأَبقار التي تعيش في السودان الآن وهي فترة يرى جرزيوزي بأَنها تبدأُ عندما بدأَ الطقس في فزان يتحوَّل إلى ما يشبه مناخ السودان الآن (٢٨) ويظهر فيـه الرعاة الذين يمثلون عادة طوال القامة شديدي التزنج أَكثر شبهاً بسكان السافانا الآن ويظهر بأَن هؤلاء القوم قد حلوا محل الصيادين البوشمن القصار القامة .

٣ ـ رسوم نقشت خلال عصر الجرامنت وهي تمتاز بالنقوش التي تمثل العربات والجياد كما أن الأشكال التي تميز الأشخاص قد رسمت على شكل المثلثين المتقابلين من الرأس(٢٩) ويرى جوزيوزي أن هذا الفن من نتاج الجرامنت ودون العديد من الرسوم التي تمثل هذه المدرسة في جهات مختلفة من الصحراء الليبية وبعضها في أماكن بعيدة مثل وادي زجزا ومسعودة الواقعة شمالي وادي الشاطيء وبعضها في جبل بن غنيمة الواقع للجنوب من فزان .

٤ ـ رسوم ونقوش ترجع لعصر الجمالة وهي الأشكال التي تمثل الجمال وراكبيها ويصاحب هذه الرسوم الأخيرة في العادة كتابات بحروف التفيناغ ويرى جرزيوري بأنها ترجع لعصر حديث نسبياً .

ولقد عزز الدكتور موري Mori بحوث أستاذه البروفسور جرزيوري حين قام بالعثور على الرسوم الملونه بوادي تشوينات بجبال الأتاكوس الواقعة شرقي غات وتعد هذه الرسوم الملون أروع النماذج التي من نوعها

بفزان ، إذ عمل الكثير منها بواسطة الفنانين المهرة المطبوعين كما وأنها تغطي جميع العصور السابقة الذكر وقد قام الدكتور موري بدراساته من سنة ١٩٦٠ ولا زال يتابعها إلى الآن وقد أَصدر كتاباً قيِّماً عن بحوثه بعنوان Taorart Acacus .

وإذا كانت الرسوم والنقوش الصخرية قد قدمت اللوحات الفنية التي تمثل مظاهر الحياة فإن الحفريات التي اجريت في هذه المنطقة قد امدَّتنا بالمعلومات العلمية اللازمة . وتعد الحفريات التي قامت بها البعثة الايطالية التابعة للجمعية الجغرافية الملكية الايطالية سنة ١٩٣٤ أَولى هذه البحوث العلميَّة المعتمدة على تقارير الحفريات . وتعد منطقتي الخرائق وجرمة أَهم المناطق التي قامت البعثة الايطالية بالحفر فيهـا .

حفريات بعثة الجمعية الجغرافية الملكية الايطالية سنة ١٩٣٤:

قامت بعثة الجمعية الجغرافية الملكية الايطالية سنة ١٩٣٤ برآسة الدكتور كابوتو باجراء سلسلة من الحفريات في نواحي مختلفة من فزان وكانت أهم هذه الحفريات في منطقة جرمة بو دي الأَجال وقد أصدرت البعثة كتاباً قيماً باسم حفريات بالصحراء Scavi Sahariani وسوف نأْخذ ثلاثة أَمثلة من هذه الحفريات أُولاها تمثل المساكن والمستقرات وثانيها تمثل الشواهد والنصب وثالثها تمثل الجبانات والمقابر.

أَما الأُولى فهي زنككرا ومن حفريات البعثة أَنقل السطور التالية:(٣٠)

«تعتبر القمة الصخرية المعروفة باسم زنككرا رأْساً

بارزاً من جبل حمادة مرزق يمتد كبرزخ طويل داخل الوادي ممتداً من الجنوب الغربي للشمال الشرقي في منتصف المسافة بين منطقتي جرمة والغريقة . وعلى السفوح الواقعة للناحية الشرقية عثر على بقايا سور طويل يمتد لمسافة غير معلومة ويبلغ عرض هذا السور حوالي ١،٥٢ متر والسور مبني بقوالب من اللبن المخلوط بالقش وفي بعض أَجزائه مبني بقوالب منتظمة من الطوب الأَحمر ، وبالسور فتحات شكلها كالنوافذ مستطيلة ربما كانت منافذ لخروج مياه الأَمطار . ويوجد إلى أَعلا من هذا السور مدرجات ربما كانت تستعمل للزراعة . وفي أَعلا الجبل توجد آثار مستقرات ولكن أَهم المباني الموجودة بها هو السور الكبير المرتفع الممتد عند عنق البرزخ من ناحيته الغربية وهو يمتد من الشمال إلى الجنوب بطول خمسين متراً وعرض مترين وستين سنتيمتراً وارتفاع ١،٦٠ متر وهو يتكون من كتل منتظمة من الأَحجار الضخمة المقطوعة من نفس الجبل من الحجر الرملي ومتماسكة فيما بينها بنوع من الملاط المحلي ومرصوصة بعضها فوق

بعض بعناية تامة .

ويلي الرأس المعروف برأس زنككرا كتلة من جبال حمادة مرزق تبدو كقلعة عالية للناحية الجنوبية من رأس زنككرا وتتصل بها بواسطة منحدر صخري ينزل تدريجياً من أعلا الجبل إلى رأس زنككرا وقد حفرت فيه السيول أخاديد عميقة ، وفي أعلا الجبل الذي هو عبارة عن هضبة مسطحة ، توجد بقايا سور يمتد بطول السطح لمسافة كيلومترين وهذا السور يتكون من مجموعة من كتل الأحجار المنتظمة التي رصت بعضها فوق بعض بعناية وكانت متماسكة بملاط . ولكن يظهر بأن جزءاً من هذا السور كان قد انهار منذ عصور قديمة . ويوجد بعد هذا السور آثار سورين آخرين انهارا الآن ولم يتبقَّ منهما سوى أحجارهما وهما يقعان إلى الجنوب من السور الأول الكبير .

وإلى الجهة الشمالية من منحدرات جبل زنككرا عثرنا على بقايا ثلاث مساكن أولاها للناحية الجنوبية الغربية من السفح ويتكون من مبنى من غرفتين وردهة

خارجية وتتكون الأَساسات والجدران السفلى للمبني من قطع منتظمة من الحجر الأَحمر اللون ، أَما الجدران العليا فتتكون من قوالب من اللبن ويبدو بأَن الجدران والأَرضية كانت مملعجة بطبقة من روث البقر . ويتكون المبنى الثاني وهو يقع للشمال الشرقي من المبني الأَول من فيلا صغيرة تتكون من ثلاث غرف كان يتوسط احداها موقد . أَما المبنى الثالث فيقع أَيضاً إلى الشمال من المبني السابق وهو أَصغر مساحة من المبنيين السابقين ... »

« وقد عثر في هذه المباني وحولها عدد كبير جداً من شقاف الفخار كما عثر بهما على قطعتين كاملتين من الفخار ، ويرجع جميع هذه الأَنواع الفخارية إلى النوع المحلي ولم يعثر سوى على شقفة واحدة فقط من الفخار الروماني وقد عثر هناك أَيضاً على عدد كبير من قطع الظران النيولوتية . ويمكننا استناداً إلى هذه الأَدلة الأَثرية أَن نقول بأَن هذا المستقر قد سكن قبل ظهور الرومان على مسرح الأَحداث بالصحراء »(٣١) .

أَما المثل الثاني وهو الشواهد والنصب فقد كتب

عن الموزاليوم بجرمة ما يلي :(٣٢)

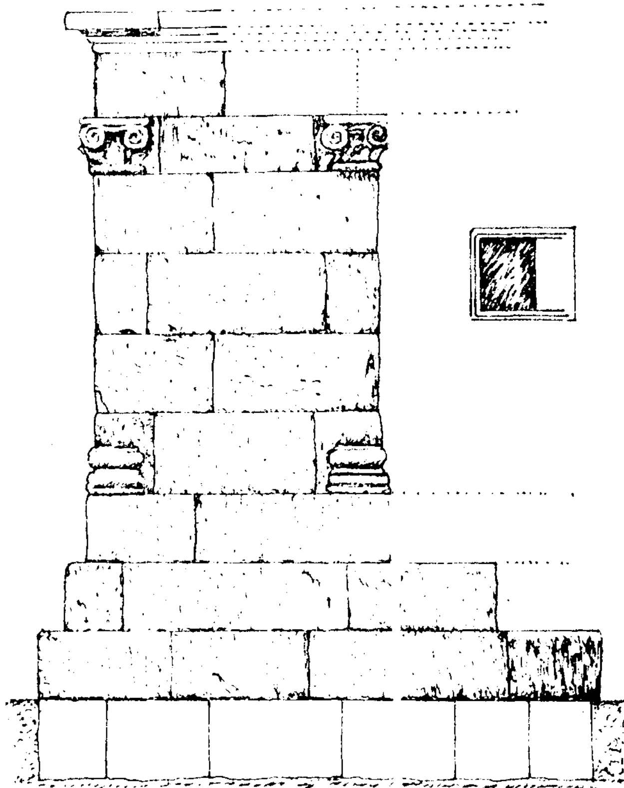
«يعتبر هذا الشاهد أشهر الشواهد بفزان إذ كتب عنه اودني الذي زار المنطقة سنة ١٩٢٢ وبارت Barth ودوفيرييه Duveyrier وزولي Zoli ويقوم الموزاليوم في السرير الواقع للجنوب من جرمه والبناءُ عبارة عن مستطيل تواجه واجهاته الأَربع الجهات الأَصلية ، وهو مبني بكتل من الأَحجار المنتظمة المشطوفة جيداً والمتماسكة فيما بينها بملاط . وقد شيدت القاعدة بأَحجار أَكبر نسبياً على الأَساس وهي ناتئة قليلاً عن الصف الذي يعلوها . وهذا الصف الثاني من الأَحجار أَيضاً بدوره نائي عن الصف الثالث ويلي الصف الأَخير حليات تزين الأَركان الأَربع الأَربع ثم جدار مرتفع وبالقرب من القمة توجد أَربع حِليات عبارة عن خصين حلزونيين يعلوان ثلاث أَوراق ـ بلوط وهي توجد أَيضاً مكررة عند الأَركان الأَربعة ، أَما أَعلا المبنى فعبارة عن افريز مستطيل . وداخل المبنِي مفرغ مملوء بكتل من الأَحجار والملاط ...»

أما عن الجبانة الملكية التي يسميها كابوتو بالجبانة

التذكارية Nicropoli Monumentale فانه يقول:(٣٣)

«على بعد حــوالي الخمس كيلومترات للشرق من الموزاليوم وعلى مسافة حوالي الكيلومتر الواحد للجنوب من طريق سبها يوجد حوالي ٢٥ قبراً كبيراً تمتد على خط واحد مستقيم ، من الجنوب إلى الشمال، قبالة بلدة جرمة القديمة. وتُشير كبر حجم القبور الموجودة بهذه الجبانة ، إلى وجود بلدة قريبة كانت هذه القبور تكون جبانتها ، وهذه المشكلة لم نتوصل إلى حلها بعد إذ لا زلنا نجهل المدينة أو البلدة التي كان يسكنها سكان هذه المقبرة.(٣٤) وجميع قبور هذه الجبانة مبنية بكتل كبيرة من الحجر المتماسكة فيما بينها بملاط ، بينما الجزءُ السفلي من القبر عبارة عن حفرة عميقة وواسعة ».

وقد أورد كابوتو وصفاً مستفيضاً للقبور الثلاثة التي قام بفتحها في هذه الجبانة ومن خلال سطوره نجده يقول عن القبر الأول وهو القبر الذي يقع إلى أقصى الناحية الجنوبية من هذه المجموعة أنه كان يظهر وكأنه بقايا مبني مربع وأن البقايا المتبقية منه لا تتعدى سوى



الموزاليوم بجرمة

جزء من السور الشرقي يبلغ طوله ١،٥٠ متر بينما ترقد باقي أَجزاء الحوائط التي تهشمت تحت أَكوام الأَحجار التي قذف بها اللصوص الذين فتحوا هذه القبور في عصور سابقة والذين ولجوا إلى داخل هذه القبور من خلال فتحات أَحدثوها في أَعلا القبور. ويقول كابوتو بأَن القبر كان عبارة عن مصطبتين مربعتين تعلو صغراهما الكبرى وانها كانت تتكون من قطع كبيرة من الأَحجار المتماسكة بملاط ، ثم كانت تملعج بالطين وتطلى بالجير الأَبيض. ويوجد أَمام القبر شاهدان على هيئة القرنين يواجهان الجهة الشرقية. ويشير التقرير أَنه قد عثر في هذا القبر على مباخر تقليدية من الفخار المحلى وعلى أَواني زجاجية رومانية وعلى بعضها نقوش مكتوبة ، ويرجح كابوتو أن محتويات هذا القبر ترجع للقرن الثاني الميلادي. أَما القبر الثاني وهو الذي يلي القبر الأَول للناحية الشمالية منه. فيقول كابوتو بأَنه يشبه القبر الأَول من ناحية الشكل ، كما وأَن اللصوص سبق وأَن خربوه كسابقه. وقد عثر فيه على امفوراً رومانية وعلى شقاف لأَواني زجاجية

كما عثر به على بعض حلى الزينة من العظام والخرز الملون ، وبعض قطع جلدية ويرى كابوتو إستناداً لمحتويات هذا القبر بأنه أقدم من سابقه .

أما القبر رقم ٣ وهو الذي يقع للجنوب من الأول ، فيعتبر أكبر مقابر هذه المجموعة ، ويظهر من جدرانه التي لم يتبقَّ سوى واجهاتها الشرقية والشمالية بأنها كانت من النوع المربع ذي المصطبتين ، وعثر أمامها على مائدة قربان كبيرة وأجزاء من شواهد على شكل القرون . أما داخل القبر فقد عثر على أواني من نوع تيرا سجلاتا Terra Sigillata وعلى شقاف أواني زجاجية رومانية مزخرفة ، كما عثر على قطع جلدية وأجزاء من قماش كتاني ملون . ويرجع كابوتو إستناداً لدراسة محتويات هذا القبر أن يكون أقدم من سابقه .(٣٥)

البعثة الفرنسيّة التابعة لمعهد البحوث التونسيّة

قامت البعثة الفرنسية التابعة لمعهد البحوث بزيارة فزان وأَجرت بعض الحفريات في وادي الأَجال في سنة ١٩٤٩ وكانت البعثة برآسة الدكتور بيير بلير Pierre Bellair وأَنني لأَقتطف من تقريرها الطويل بعض هذه الفقرات:

«يسمى وادي الأَجال بشارع الجبانات ، وترجع أَغلب هذه الجبانات إلى عمل الجرامنت. ووادي الأَجال في الحقيقة يقع بين صحراءَ الأَرح شمالاً وجبال الحمادة جنوباً. وحافة الحمادة التي تحد الوادي من الناحية الجنوبية تبلغ حوالي المائة والخمسين متراً ، أَو المائتين في الارتفاع ، وهي تمتد على هيئة رؤوس داخلة أَو خلجان مقعرة لتضيق من عرض الوادي إلى ٢ أَو ٣ كيلومترات أَحياناً ، أَو

لتوسعه إلى ١٠ أو ١٢ كيلو متراً أحياناً أخرى . والجزء المسكون حالياً من ذلك الوادي عبارة عن شريط ضيق يقع بالقرب من كثبان الرمال بعيداً عن أرض الحمادة الصخري .

وعلى الحافة الجنوبية للوادي ، وعلى إمتداد حوالي مائتي كيلومتر ، يوجد عدد كبير من القبور. ويشاهد أيضاً وجود عدد كبير من المقارات التي تمتد من سفح الحماد الصخرية إلى بطن الوادي . أما في بطن الوادي فتوجد آثار الكثير من المباني المشيدة من اللبن أو الحجر . وقد أمكن العثور بالقرب من سفح الحمادة على مواقع كثيرة للصناعات النيوليتية خاصة بالقرب من قرية بنبيا Benbia وقد قدر عدد القبور الموجودة عند سفح الحمادة بستين ألف قبر . وقد إستدل بعض العلماء من هذا العدد على كثرة سكان وادي الأجال ولكن إذا لاحظنا أن السكان الحاليين وعددهم ١٠،٠٠٠ شخص يمكن أن يقدموا خلال مئتي عام نفس عدد الموتى أي ٦٠،٠٠٠ ، لعلمنا أن التقدير الأول للسكان لم يكن صحيحاً . وكذلك

أدى كثرة الفجارات التي كانت قد أقيمت بالمنطقة. إلى الإعتقاد بأن عدد الأيدي العاملة التي شيدت تلك الفجارات، كان كثيراً جداً. إلاَّ أننا يجب أن نضع في الإعتبار، أن جميع هذه الفجارات لم تشيَّد في وقت واحد بل شيِّدت على مر العصور. وإذا نحن نظرنا إلى وهذه المشكلة على أساس المساحة التي كانت هذه الفجارات تقوم بريها، فإننا نجد بأنها لا تزيد على ثلاثة أو أربعة أضعاف المساحة المزروعة حالياً. وهذا يعني أيضاً أن عدد السكان لم يكن ليزيد خلال تلك العصور عن السكان الحاليين إلاَّ بنسبة قليلة جداً.

واليوم نرى من بقايا هذه الفجارات التي بطل إستعمالها منذ مدة طويلة آثاراً دارسة. ومن المظنون أن هذه الفجارات نشأت في الأصل كنتيجة للبحث عن عيون المياه أو ما يسمى بالآبار الإرتوازية. ومن المستبعد أن تكون هذه الفجارات من عمل الجرامنت، إذ شهد كل الكتاب القدامى أن العصر الجرامنتي كان عصر زراعة ورعي، وأنه كان يعتمد على مياه الينابيع، ولذا

فمن الأَصح أَن نفترض بأَن هذه الفجارات انما أُقيمت في عصر تال بيد شعب بلغ أَوج كماله المادي وأَراد أَن يؤخر أُفول مجاه نتيجة لانخفاض مستوى المياه الجوفية .

أَما عن الجبانات ، فالمهم هو أَن نضع لها مكاناً في خطِّ التاريخ العام . فالعناصر الوحيدة التي يمكن أَن تعطينا تاريخاً ثابتاً مؤكداً هي الأَشياء التي عثر عليها بها والتي تنتمي إلى حضارات البحر المتوسط القديمة ، ولقد تمكنت البعثة الايطالية التي قامت بحفريات لا سيما بمنطقة جرمة من تحديد تاريخ الكثير من القبور ، بفضل العثور على الكثير من الأَواني الفخارية والزجاجية الرومانية المعروفة تاريخها . ولكن مع الأَسف فإن الكثير من القبور الجرامنتية خالية من العناصر المعروفة للتاريخ .

ويتضح من معاينة سريعة قمنا بها ، وجود ثلاثة أَنواع من القبور . أَولها النوع المربع الذي يتكوَّن من مصطبتين تعلو صغراهما الكبرى ، ويقوم في العادة بالقرب منها شاهد Stele ومائدة للقربان Mensa ، ونوع ثان

عبارة عن طراز دائري كفم البئر ، وهي أَيضاً مصحوبة بشاهد ومائدة للقربان ، ونوع ثالث عبارة عن طراز دائري كسابقه ولكن تغطي فم البئر لوحة صخرية .

جبانة التناحمة : بالقرب من قرية التناحمة Tenahma عند الحافة الجنوبية للوادي ، حيث تمتد سلسلة الجبال على هيئة بطن الهلال ، توجد جبانة بها حوالي الستين قبراً متناثرة بلا نظام عند سفح الجبل ، وبالقرب من منحدراته السفلى وقد وجدت أَغلب القبور مفتوحة منذ عصر سابق . وقد قمنا بفتح أَحد هذه القبور فوجدنا الهيكل العظمي مهشماً أَما الجمجمة فكانت سليمة . وقد وضعت الجثة على جانبها الأَيمن ورأْسها نحو الغرب . وقد وجدت آثار أَزار من الجلد لاصقة بعظمة الفخذ فوق الركبة ، ويبدو أَن ذلك الأَزار المصنوع من الجلد كان أَحمر اللون . ويدل الفحص الذي أُجري للهيكل العظمي بأَنه كان لأُنثى مسنة قصيرة القامة أَما الجمجمة فكانت مستطيلة قليلة الارتفاع . وكانت الأَسنان سليمة . ولم يعثر بالقبر على أَي شيءٍ فيما عدا بقايا لوسادة

خشبية كانت توضع تحت الرأس .

الجبانة الواقعة بين الناحمة والرجيبة : تقع إلى بعد حوالي الأربعة كيلو مترات غربي الجبانة الأُولى ، وتقع هذه الجبانة أيضاً عند النهاية الجنوبية للوادي وعند السفوح الشمالية للحمادة . توجد مجموعة كبيرة من المقابر التي على شكل المصطبتين ، وبجوار بعض هذه القبور الشواهد وموائد القربان .

وقد قمنا بمعاينة وفتح احدى هذه القبور فوجدنا أَنه يتكون من حائطين من الأَحجار المتماسكة بملاط ، والمبنية على هيئة مربعين يعلو الصغرى منهما الكبرى . أَما المساحة الموجودة داخل الحائطين فمليئة بالتراب والأَحجار. وحفرة الدفن عبارة عن بئر يبلغ عمقه حوالي الثمانين سنتيمتراً ، وعثرنا في قاع حجرة الدفن على حصيرة من الخيزران وضع عليها الهيكل . وقد ربط خيزران الحصيرة بالقش. وقد وجد الهيكل مهشماً والجمجمة مستطيلة والأَسنان تقريباً سليمة. وقد عثر بالقبر على جمران وبعض البقايا لازار من الجلد » .

وبعد إستطراد الباحث وصف حفرياته في جبانات أخرى خرج بالنتائج التالية :-

«ويمكن بمقارنة ما عثرنا عليه خلال حفرياتنا بما عثرت عليه البعثات السابقة لنا لا سيما البعثة الإيطالية بوادي الأجال ١٩٣٤ أن نستنتج الحقائق التالية :

١ - شكل القبور : وجد أن هناك عدد من الأنماط المختلفة للمقابر . فقد وجدت البعثة الإيطالية ١٩٣٤ عدداً من المقابر التي على شكل المصطبتين - المربعتين كما وجدت عدداً من المقابر المشيدة على هيئة الأهرام والمبنية من اللبن أو القرميد الجاف . ومع أن الاختلاف في شكل المقابر قد لا يعطينا فكرة عن تاريخ هذه القبور ، إلاَّ أنها تعني وجود تطور في بناءِ القبور من الشكل الدائري لقبور عصر ما قبل التاريخ ، إلى المقابر المربعة ذات المصطبتين ومعها بعض الشواهد وموائد القربان . كما نشاهد وجود نوعين من الدفن . النوع الأول : وفيه يسجى الميت في حفرة ضحلة ، ولعل الأصل في هذه الطريقة كان ترك الجثة على

الأَرض في الهواءِ الطلق. ولا يستبعد أَن تكون هذه هي العادة التي كانت متبعة في القديم بالصحراءِ. ودراسة عادات لشعوب المعاصرة التي تترك أَمواتها في العراءِ تظهر أَنهم في العادة يضعون حول الجثة دائرة من الحجارة.

أَما النوع اثاني من أَنواع الدفن فهو المقابر المصطبية فقد حفرت لها غرف الدفن عميقة في الأَرض. ومن المشاهد أَن هذا الطراز من الدفن هو الذي كان شائعاً في العهد الروماني.

٢ ـ الشواهد[1] Stele وموائد القربان Mensa : وجد عدد كبير من الشواهد وموائد القربان عند القبور الجرامنتية وبعض هذه الشواهد على شكل القرنين وبعضها على شكل كف اليد ذي الأَربعة أَصابع. أَما موائد القربان فعبارة عن كتل مستطيلة من حجر الرمل النوبي، حفر على سطحها العلوي بعض الأَخاديد المربعة والمستطيلة والدائرية، وهي تتكون من حفرة رئيسية عند إحدى الجوانب، وينتظم أَمامها حفر أُخرى. وقد

وقد وجد أن أَغلب هذه الشواهد وموائد القربان قد وضعت للناحية الشرقية .

٣ ـ وضع الجثة عند الدفن : وجد أن أَغلب الهياكل قد دفن أَصحابها على شكل الجنين؛ أَي الأَرجل مطوية والأَيدي منثنية أَمام الصدر . وهو يتفق مع ما كتبه المؤرخون الكلاسيك ، ولو أَنه ليس من هناك من دليل على وجود دفن الجثة على هيئة القرفصاء أَو تقييد الجثة بالحبال لتظل على هذا الشكل .

٤ ـ اللون الأَحمر : عثر على الكثير من المواد الحمراءُ داخل القبور ولا يعرف إذا كانت هـذه المواد تستعمل لتلوين جثة الميت باللون الأَحمر . وقد عثر في قبر تين حنان Tin Hinan على كأْس صغيرة مليئة بطين أَحمر اللون ولا نعرف حقيقة السبب في وجود هذا اللون في المقابر الجرامنتية .

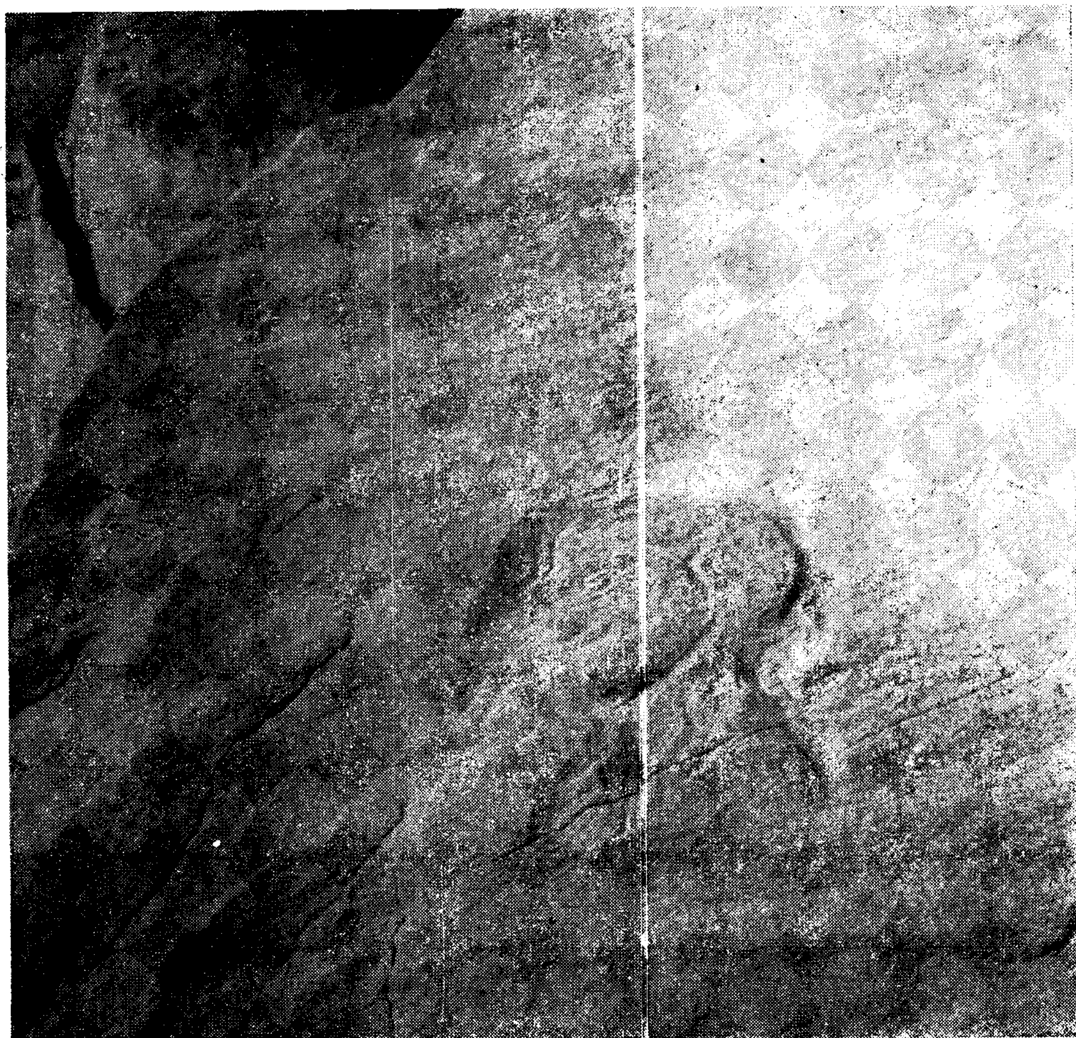
٥ ـ الطقوس الجنزية : لا زال أَمر كيفية دفن الموتى غامضاً للآن ، كما أَن العثور على الأَكفان المصنوعة من الجلد لا زالت تشكل لغزاً غير مفهوم .

٦ ـ الأَشياءُ التي عثر عليها بالمقابر: وجد الكثير من أَدوات الزينة مثل العقود المصنوعة من حبات بيض النعام أَو الخرز. كما عثر ببعض القبور على أدوات زينة تماثل الأَدوات التي ترجع للعصر الحجري الحديث وهذا يدل على أن حضارة العصر الحجري الحديث ظلت موجودة بالصحراء حتى عصر متأَخر نسبياً.

٧ ـ إلى أَي الفصَائل السلالية يرجع أَصحاب هذه المقابر: إتَّضح من البحث الأَنثروبولوجي أَن أَصحاب هذه المقابر أَنما يرجعون إلى أَربعة مجاميع رئيسية. إثنان منها ترجعان إلى السلالات البيضاء وواحدة من السلالة السوداء وواحدة مزيج بين السلالتين أَي خلاسية».



نقش من زنككرا يمثل احد فرسان جرمة



نقش من زنككرا يمثل رأس رجل

حفريات مصلحة الآثار الليبيّة بفزّان

أ ـ الرسوم الصخرية بجبل زنككرا

قبل أَن نتكلم عن الحفريات التي أَجرتها مصلحة الآثار الليبية بفزان في منطقة جرمة، أَود أَن أُقدم لمحة قصيرة عن جغرافية المنطقة: تقع منطقة جرمة، كما سلفت الأَشارة في المقدمة، بالقرب من نهاية وادي الأَجال من الناحية الغربية، ويحد الوادي من الناحية الشمالية مرود الرمال العالية المسمى بديون او ياري بينما يحدها من الشمال سلسلة الجبال المعروفة باسم حماده مرزوق وهي تتعرج شمالاً وجنوباً مكونة رؤوساً وخلجاناً. أَما الوادي نفسه فينحدر سطحه بسهولة ويسر من كـلا الهضبتين حتى بطن الوادي، حيث تقوم في العادة غابة

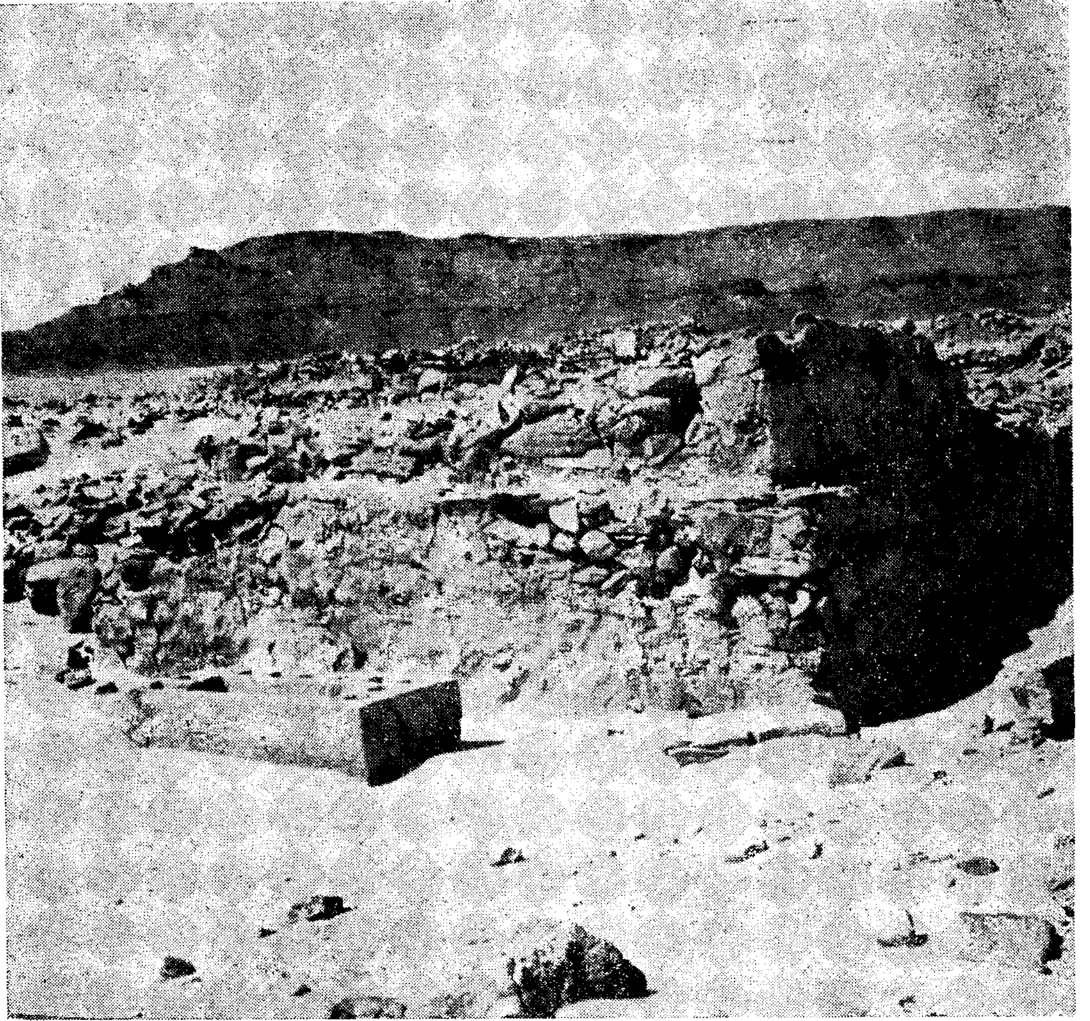
كثيفة من النخيل. ويمتد في الوادي عـــدد من القرى والمزارع، وإذا تتبعنا الوادي من الناحية الشرقية لوجدنا أَن واحة جرمة تنحصر بين المنطقة التي يحدها من الشرق رأْس جبل طوشي، وهو نتوءُ بارز من جبال حمادة مرزق تمتد إلى داخل السهل ويحدها من الغرب الرأْس الناتيء من نفس السلسلة والمعروف باسم جبل زنككرا، وبالقرب من الجدار الذي يكوّن حافة القمة سطر الجرامنت مجموعة من الرسوم التي حفرت بالحَز بآلة حادة وقد وجد ضمن هذه المجموعة صور تمثل الأَبقار ذات القرون الطويلة الممتدة للخارج والشبيهة بالأَبقار السودانية، وهي نفسها التي قال عنها المؤرخ الاغريقي هيرودوت بأَنها ترعى وهي تسير للخلف. كما وجدت عدة رسوم تمثل الزراف وبعضها يمثل زرافاً قيد القدمين ، وهناك بعض الرسوم التي تمثل النعام والحمير. ولعل أَهم هذه الرسوم جميعاً هما الرسمان الذي يمثل أَحـــدهما فارساً جرامنتيـــاً يمتطي حصاناً (لوحة ١) ويمثل الآخر وجه رجل جرامنتي (لوحة ٢) وترجع أَدمية النقوش التي عثر عليها هناك، في أَنها تبين الفن الجرامنتي المبكر في عصر زنككرا .



القبر رقم ٢ من المجموعة الثانية للجبانة الملكية ويلاحظ أمامها الشواهد التي على شكل القرون



القبر رقم ٣ من المجموعة الثانية بالجبانة الملكية ، ويرى مائدة قربان كبيرة امـــام القبر



القبر رقم ٣٠ من المجموعة الثانية للجبانة الملكية ـ جرمة

ب ـ الجبانة الكبرى التذكارية (الجبانة الملكية) (٣٧)

تقع هذه الجبانة عند سفح الجبل على بعد حوالي ٥ كيلومترات إلى الجنوب من جرمة القديمة. وقد بنيت القبور عند المنحدر الذي يبدأ في التدرج للانخفاض نحو بطن الوادي. ويخترق الموقع عدد كبير من مجاري السيول الجافة . وتعتبر هذه البقعة المنعزلة من أكثر الجهات وحشة، فلا يوجد بها مزارع أو آبار أو أية منابع للماء، ولا يقوم بها سوى عدد محدود جداً من الأشجار الشوكية، والأعشاب الصحراوية التي ترعاها الابل أو الخراف. وقد سبق أن أشرت إلى تقرير البعثة الايطالية سنة ١٩٣٤ ولذا فسوف أقتصر على ذكر المقابر التي قامت مراقبة الآثار الليبية بالكشف عنها.*

كشفت البحوث، أن هذه الجبانة تحتوي على ثلاث مجموعات من المقابر: المجموعة الأولى وهي عبارة عن

---

* نشرت مصلحة الآثار تقريرين منفصلين عن الحفائر التي قمت بها

أ ـ M. S. Ayoub : Excavations in Germa between 62 & 66.

ب ـ M. S. Ayoub : Excavations in Germa 1967 .

أَربعة قبور متناثرة على رصيف الحمادة الوسطى وكل منها مبني على شكل مربع يتكوَّن من مصطبتين تعلو صغراهما الكبرى وهو الطراز السائد في مقابر هذه الجبانة. وقد وجدت البعثة الايطالية أَن اللصوص قد سبقوا أَعضاءَ البعثة في فتح هذه القبور والاستيلاء على محتوياتها.

المجموعة الثانية

وهي تحتوي على أَهم مجموعة من القبور، لا لكبر حجمها فقط، ولكن لأَنها تمتد جميعاً في خط واحد مستقيم يسير من الجنوب إلى الشمال. وتتكوَّن هذه الجبانه من خمسة وعشرين قبراً. وقد أَطلق الايطاليون على هذه المجموعة إسم الجبانة التذكارية، نظراً لكبر حجم قبورها بالمقارنة بالمقابر الأُخرى التي عثر عليها بوادي الأَجال.

وقد كشفت البعثة الايطالية سنة ١٩٣٤ من قبل عن المقابر رقم ١، ٢، ٣ وهي المقابر الواقعة للناحية الجنوبية، بينما قامت مصلحة الآثار الليبية تحت إشرافي

شخصياً بالكشف عن القبور رقم ٤ ، ١٤ ، ٢٠ ، ٢٥ من هذه المجموعة (وقد نشرت التقارير الخاصة بهذه الكشوف عن طريق مصلحة الآثار الليبية).

القبر رقم ٤ : وجدت أَن اللصوص سبق أَن دمَّروا جدران وسطح هذا القبر عند محاولتهم الولوج إلى داخله ، حتى أَنهم أَحالوا جدران القبر إلى كومة من الأَحجار المكومة بلا ترتيب أَو تنظيم. ثم يظهر بأَن الرياح قد حركت الرمال حتى سدت القبر ثانية. وقد أَعدت فتح القبر لأَجد أَن سطح الدفن كان على عمق حوالي الثلاثة أمتار. وقد عثرت بحفرة الدفن على جمجمة منفصلة عن الهيكل العظمي ، وربما كان ذلك الفصل نتيجة لعبث اللصوص أَو العوامل الجوية ، بعد فتح المقبرة على يد اللصوص. وقد عثرت بالقبر على الأَشياء الآتية :-

١ - إناء من نوع الأَواني المعروفة بإسم أَواني الفيوم أَو أَواني ممفيس التي كانت منتشرة الاستعمال في مصر خلال القرن الأَول الميلادي.

٢ - إناء من الفخار الأَحمر المصقول ، لها غطاء مستدير

ومصب دقيـــق وهي من طراز Terra Sigillata Chiara من نوع ١٦ Lamboglia

٣ ـ بعض شقاف الأَمفورا الرومانية .

٤ ـ بعض شقاف الزجاج غير الملوَّن ، وتبدو عليه الفقاقيع ظاهرة ، وكذلك بعض شقاف الزجاج الملوَّن .

٥ ـ بعض قطع من الأَكفان من الصوف ومن الكتان .

القبر رقم ١٤ : يقع ترتيبه في الرقم ١٤ من الناحية الجنوبية ، وهو يقع عند منتصف الصف من قبور هذه المجموعة ، ويبدو بأَنه كان قبراً كبير الحجم وقد فتح هذا القبر أَيضاً ، كغيره من القبور ، مِن قِبَل اللصوص . وقد دُمرت جدران هذا القبر بنفس الكيفية كسابقه . ويظهر بأَن لصوص المقابر كانوا يبحثون عن الأَشياء الثمينة ولم يعنوا بالأَشياء الأُخرى ، وقد عثر به على الأَشياءِ التالية :

١ ـ جمجمة يبدو أَن صاحبها كان من سلالة البحر المتوسط .

٢ ـ إناء من الفخار الأَحمر المصقول وكانت شفتها الخارجية العريضة مزينة بخطوط بارزة مموجة.

٣ ـ عثر على مجموعة من الصحون الرومانية المصنوعة من الفخار الأَحمر المصقول من نتاج مصانع صبراته.

٤ ـ شقاف مباخر مصنوعة من طين محلي وتزينها نقوش هندسية ومحلاة بأَلوان فاقعة.

٥ ـ قطعة من مقبض مكحلة مصنوعة من العاج.

وقد عثر بالقرب من هذا القبر في الخارج على شاهد بهيئة كف اليد مصنوع من الحجر الرملي.

القبر رقم ٢٠ : هذا القبر، بخلاف سابقيه الواقعين للجنوب منه، عبارة عن قبر دائري الشكل: حفرة بسيطة، تحيط به كومة مستديرة من الأَحجار التي رُصَّت بغير إنتظام، على شكل قبور عهد ما قبل التاريخ. وقد عثر في هذا القبر على مجموعة من شقاف الفخار البربري سواء الفخار الأَسود المحلي بزخارف خضراء اللون أَو الفخار الأَبيض المزخرف بخطوط هندسية بيضاء اللون.

القبر رقم ٢٥ : وهو آخر القبور ويقع للناحية الشمالية ويظهر من شكله أنه كان أَصغر القبور وأَفقرها في الوقت نفسه .

المجموعة الثالثة

وهي عبارة عن عدد كبير من القبور المبنية بدون نظام ثابت والممتدة من الجنوب الغربي للشمال الشرقي ، وإلى الشرق من المجموعة الثانية . وقد أَمكننا أَن نعد في هذه المجموعة قرابة ٩٦ قبراً .

وقد قمت بالكشف عن القبر رقم ٣ ويقع للجنوب الغربي والقبرين رقم ٣٠ ، ٣٣ ويقعان في وسط قبور هذه المجموعة تقريباً ، ثم القبر رقم ٩٦ وهو قبر صغير وفقير المحتويات ويقع في أَقصى الركن الشمالي الشرقي .

وبفحص الهياكل العظمية التي وجدت في قبور هذه المجموعة التي تمَّ الكشف عنها ، إتَّضح أَنها ترجع جميعاً للأَناث مما يظن منه أَن هذه المجموعة ربما أُقيمت للإِناث لا

للذكور، وإن كان هذا الأَمر لا يمكن الجزم به إلاّ بعد كشف جميع قبور هذه المجموعة.

ومن فحص المجاميع الثلاثة من قبور هذه الجبانة تتضح الحقائق التالية :ـ

١ ـ إن القبور الأَربعة الموجودة عند الرصيف العلوي من مدارج الجبل ربما ترجع إلى أَجداد الأُسرة التي شيَّدت قبورها في صف واحد من الجنوب إلى الشمال، وهذا يعني بأَن الذين جاؤوا بعد هؤلاءِ الملوك أَو الزعماءِ الأَربعة لم يجدو مكاناً مناسباً لتشييد قبورهم عند سطح الجبل، فبنوا قبورهم عند قاعدة الجبل في بداية السهل.

٢ ـ نستنتج من الترتيب التتابعي لقبور المجموعة الثانية، أَن ملوك جرمة خذوا يراعون الترتيب الوراثي في تشييد قبورهم، كل منهم عقب سابقه، ولو أَن الحفريات قد أَثبتت أَن هذه القاعدة ليست صحيحة دائماً تماماً. فقد وجد أَن المخلفات التي عثر عليها في القبر رقم ٣ ترجع للنصف الأَول من القرن الثاني الميلادي،

بينما ترجع المخلفات التي وجدت في القبر رقم ٢ ، ١ إلى النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي . وهذا يعني أن القبر رقم ٣ قد شيد أولاً ثم القبر رقم ٢ ثم القبر رقم ١ أي أن الترتيب الأول لقبور هذه المجموعة كانت من الشمال إلى الجنوب ، ولكن صاحب القبر رقم ٤ لم يجد مكاناً مناسباً ليشيد قبره ولذا فقد بناه إلى الشمال من القبر رقم ٣ ثم وضع صاحب القبر رقم ٥ قبره إلى الشمال من القبر رقم ٤ وهكذا .

٣ ـ لم نعثر في هذه القبور ـ مع الأسف ـ على أية نصوص مكتوبة يمكن أن نستدل منها على أسماءِ أصحابها أو سني حكمهم أو حياتهم .

٤ ـ يظهر من شكل القبور أن الملوك الأُوَل لهذه الأسرة كانوا أقوياءَ وأثرياءَ وأن الملوك الأواخر كانوا ضعافاً وفقراءَ .

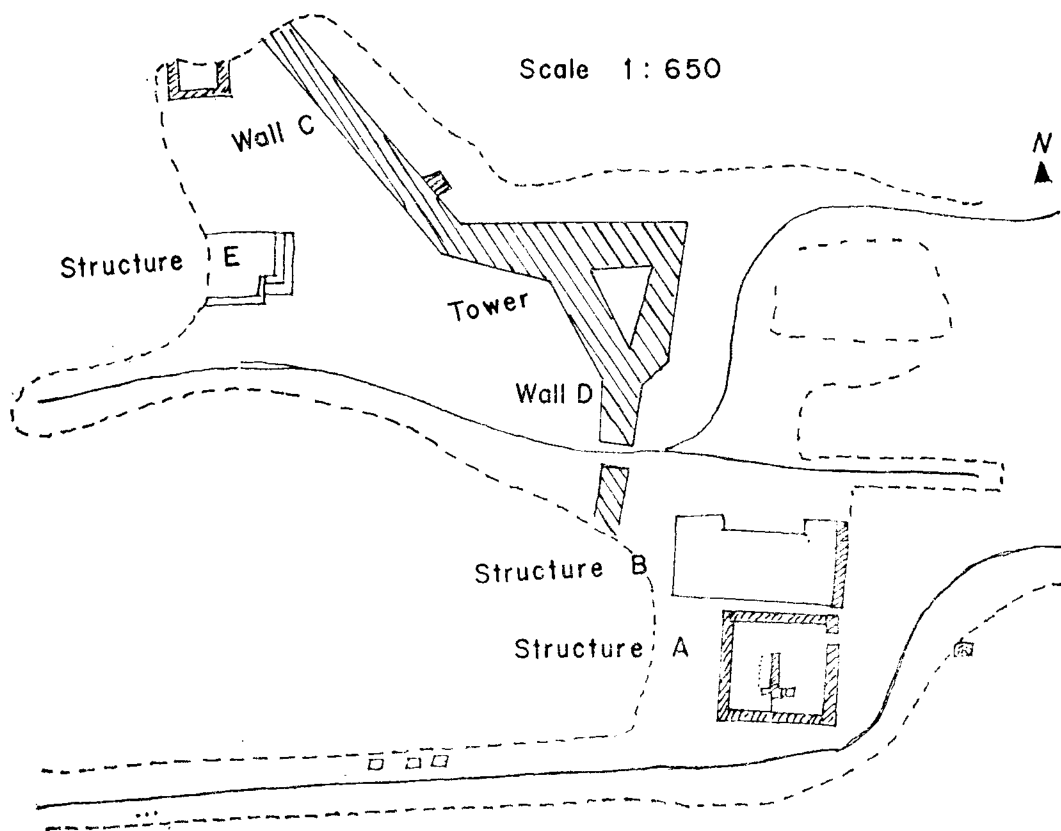
٥ ـ يظهر أن أصحاب قبور المجموعة الثانية كانوا من

الشخصيات الهامة ، وربما كانوا ملوك جرمة في الفترة المحصورة بين القرن الثاني الميلادي والقرن السادس بعد الميلاد .

٦ ـ يظهر أن أصحاب قبور المجموعة الثالثة كانوا من الشخصيات المهمة أيضاً إلا أنه يبدو بأنهم كانوا يلون أصحاب قبور المجموعة الثانية في الأهمية .

جرمة القديمة (٣٨)

تقع مدينة جرمة القديمة على مرتفع من الأرض في قلب الوادي . والمدينة كما تبدو اليوم بيضاوية الشكل تقريباً ، يبلغ قطرها من الشرق إلى الغرب حوالي خمسة كيلومترات ، ومن الشمال إلى الجنوب حوالي الثلاثة والنصف كيلومتر . ويحيط بالمرتفع الذي شيدت عليه المدينة خندق ليس بالعميق ملىء في الكثير من أجزائه بالمياه الآسنة . ويحيط بهذا الخندق لا سيما من الجهات الشمالية أرض مالحة ويوجد بها الكثير من المستنقعات التي هي مباءة للناموس والحشرات ، بينما يحيط بها من الناحية



منطقة الحفائر بجرمة القديمة

الجنوبية والغربية غابة كثيفة من النخيل. ويوجد أمام المدينة من الناحية الشمالية أرض سباخ ربما كانت جزءاً من بحيرة واسعة أو مستنقع كبير.

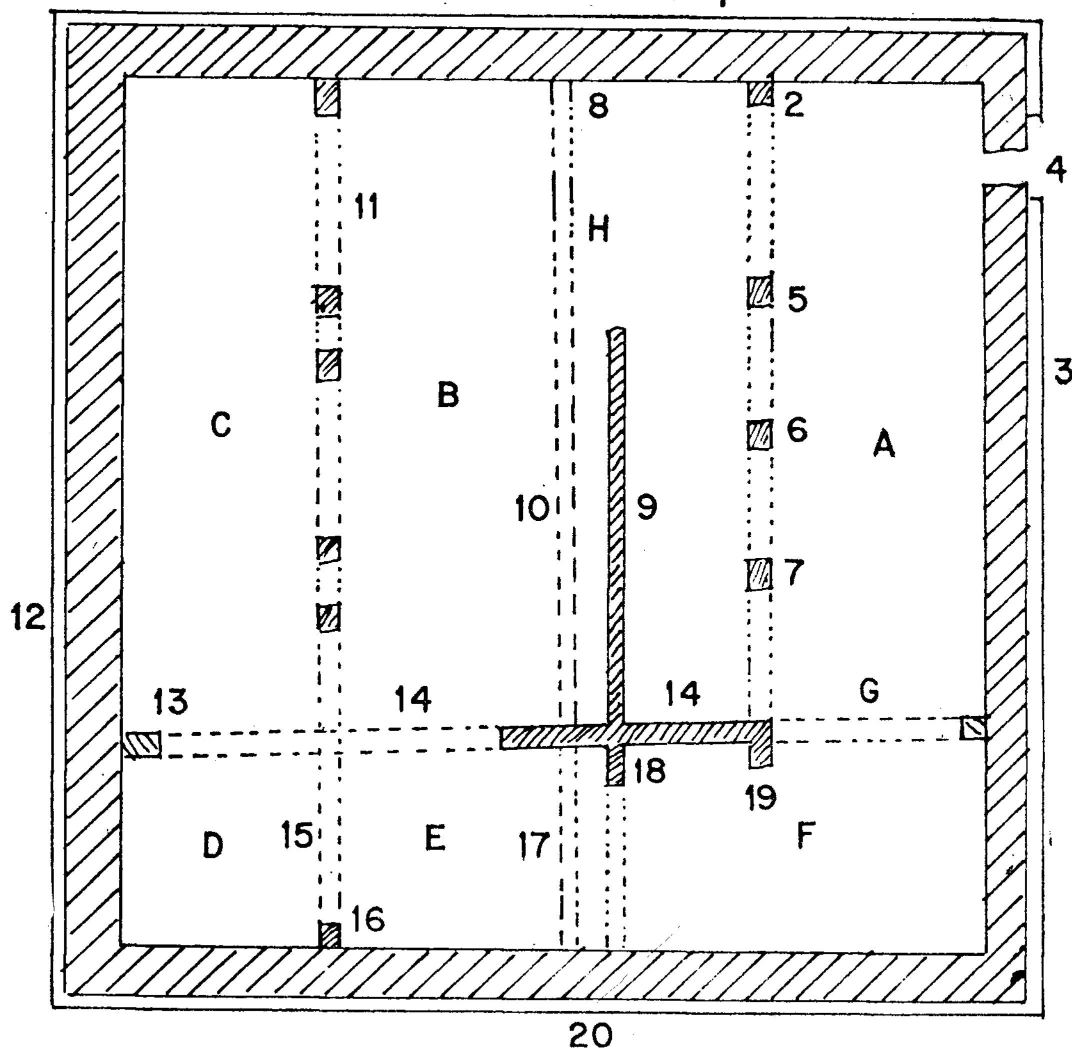
وتلي الخندق إلى الداخل، أطلال سور المدينة وهو مبني بالطين. وقد شيد هذا السور في تاريخ تال وهو غير السور القديم المبني من الحجر والذي كُشف عن قسم منه في الحفريات الأخيرة. وعلى السور آثار الأبراج وهي مبنية على الطراز المغربي على هيئة الصوامع المربعة. وكان للمدينة أربعة أبواب زالت الآن، الشرقي منها وكان يعرف بإسم الباب الكبير، والباب الجنوبي وكان يعرف بالباب الصالح، أما الباب الغربي فكان يعرف بباب الخوجة. وطبعاً هذه التسميات عرفت بها تلك الأبواب منذ زمن قريب. والمدينة غير مسكونة الآن إذ تم إخلاؤها في عهد الحكم الايطالي حوالي سنة ١٩٣٦ تقريباً نتيجة لانتشار وباء الملاريا بها. ولكن يظهر بأن المدينة كانت حتى في القرن التاسع عشر قليلة السكان كما يصفها كل من أودني Oudney وبارت Barth

١٧

▲

Structure A

Scale 1 : 100



المبنى أ ، حفائر مصلحة الآثار الليبية

وفي الداخل نجد الكثير من أَطلال المنازل المشيدة بقوالب الطين وقد ظهرت عليها بوضوح آثار الزمن. ونجد الكثير من أَشجار النخيل التي غرسها الأَهالي منذ زمن ليس بالبعيد. ويقص شيوخ البلدة أَن الجزءَ المسكون في أَوائل هذا القرن، كان الجزءَ الشرقي وكان يسمى بالموردي وكان به مسجدان، مسجد بالقرب من الباب الشرقي وكان يعرف بجامع ستنا فاطمة ومسجد في وسط المدينة عند الطرف الغربي لحي الموردي وكان يعرف بجامع المنارة. ويذكر نفس هؤلاءِ الشيوخ أَن ذاكرتهم تعي بأَنهم عندما كانوا أَطفالاً كان الجزءُ الغربي من المدينة مسكوناً. وهذ الجزء الغربي عبارة عن أَطلال مدينة كاملة بها منازل صغيرة مبنية بالطين وهي منتظمة بين أَزقة متعرجة ضيقة، ويوجد للناحية الغربية منه آثار مبنى كبير لا زالت بقايا جدرانه العالية قائمة للآن. والمبني عبارة عن قصر أَو قلعة مشيدة على شكل دائري، مسور بأَسوار عالية عليها آثار أَبراج، بها فتحات لاطلاق السهام. ومن الداخل يوجد صحن مكشوف ربما

كانت تقوم عند أَركانه بعض الحجرات . ويروي الشيوخ عن أَجدادهم بأَن هذا المبنى كان مقراً للحاكم ويعرف باسم القصبة وهو تعريف مغربي يطلق عادة على مقر الحاكم .

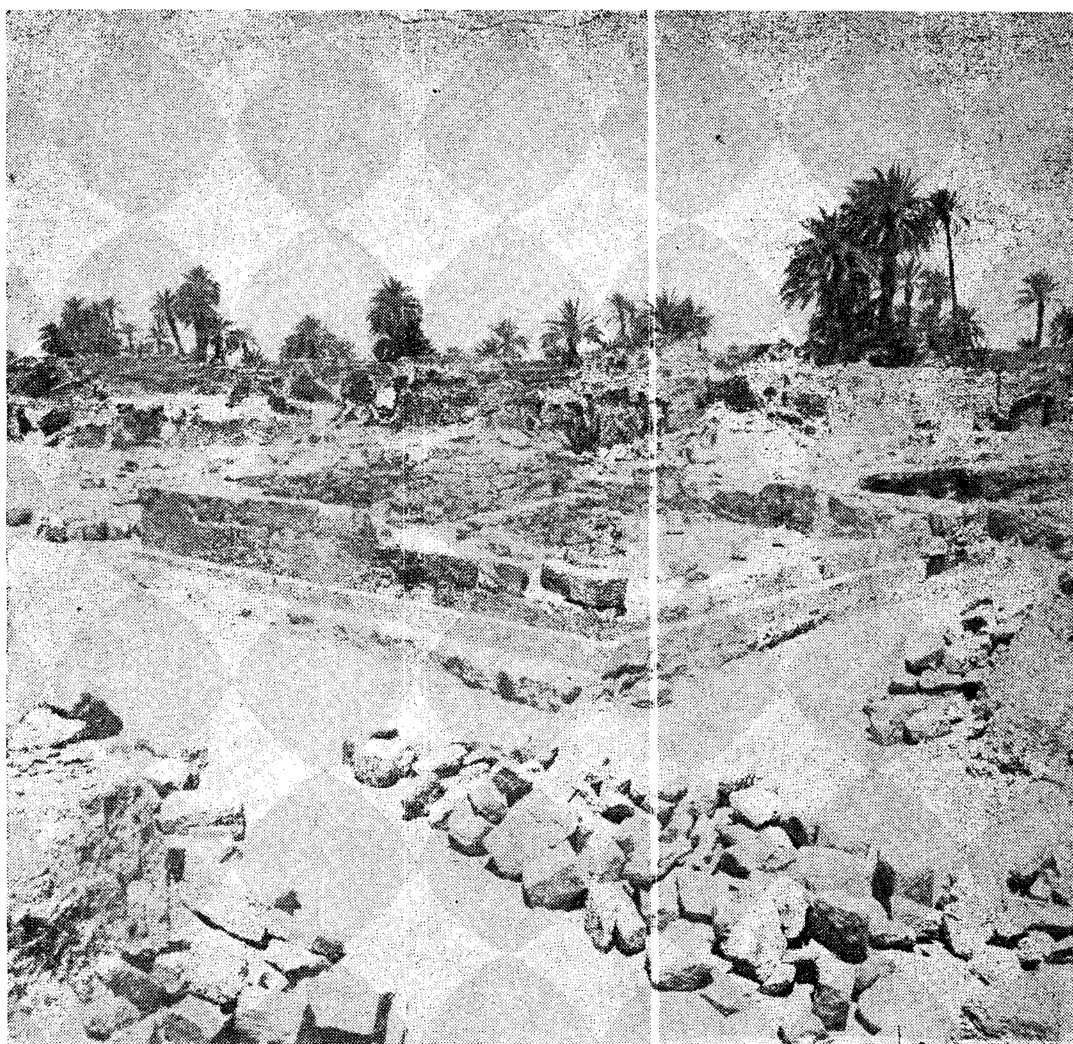
ولقد زرت هذا الموقع في سنة ١٩٦٢ لأَول مرة ، ولاحظت وجود كتل من الأَحجار المقطوعة من الجبل ، والمهذبة الشكل ، متناثرة بين المباني ، كما لاحظت إمتداد بعض هذه الأَحجار بطول أَساسات بعض البيوت المشيدة من اللبن . كذلك لاحظت بأَن بعض القطع الحجرية المستعملة كعتبات لتلك المنازل الفقيرة عبارة عن تيجان أَو أَجزاءَ من أَعمدة من الطراز الاغريقي ، كل هذه العوامل أَوحت إليَّ بأَنه لا بد وأَن تكون هناك آثار أُخرى من عهود أَقدم موجودة تحت تلك الأَطلال .

ولقد وقع إختياري على موقع بوسط المدينة لأَبدأَ فيه الحفائر . وفعلاً شرعت في عمل خنادق الاختبار التي قادتني إلى الوصول إلى بعض الجدران المشيدة من كتل الحجر المنتظم . وعندما تمت الحفائر كان أَمامنا مبنى

مربع مشيد من كتل الأَحجار الضخمة المنتظمة المتماسكة بملاط ، وكان أَساس المبني عبارة عن مجموعة من الأَحجار الصغيرة المتماسكة بملاط وضع فوقها صف من الأَحجار المستطيلة المنتظمة الضخمة التي يبلغ طول الواحدة منها ٦٠ سم وعرضها ٤٠ سم وارتفاعها ٣٠ سم وقد وضعت ناتئة قليلاً عن ما يعلوها. ورصت فوق هذه الطبقة صفوف أُخرى من كتل الأَحجار المنتظمة الموضوعة بنظام دقيق والمتماسكة فيما بينها بملاط، وكانت البقايا التي عثرنا عليها من هذه الصفوف تتراوح بين الصفين والأَربعة صفوف. وكانت هذه الصفوف تكوِّن الواجهة الخارجية للمبنى . أَما من الداخل فكانت هناك أَيضـاً صفوف من نفس لنوع من الكتل الحجرية إلا أَنها لم توضع بهذا الانتظام ولعل السبب في ذلك يرجع كما سأُشير فيما بعد أَن جدران الكتل الداخلية كانت تطلى بالجبس والطلاء. وكان يوجد بين الكتل المكونة لجدران الواجهة الخارجية والكتل المكونة لجدران الواجهة الداخلية فراغ مليء بكتل من الأَحجار الصغيرة غير

المنتظمة وعجينة الملاط .

ويلاحظ وجود مدخل المبني عند الناحية الشمالية الشرقية (٤) كما يلاحظ من فحص ذلك المدخل أنه مر بفترتين رئيسيتين ، فعندما شيد المبني لأول مرة كان المدخل واسعاً يبلغ حوالي المتر ، وكانت تقوم على جانبي المدخل زخارف هندسية بارزة وهي تشبه الزخارف الموجودة عند قاعدة الموزاليوم . أما من الداخل فتوجد القاعدة الكبيرة « A » ويظهر بأن القسم الشرقي منها كان مكشوفاً بينما الجزء الواقع للغرب أو للداخل منها كان مسقوفاً وذلك نظراً لوجود بقايا أساسات الأعمدة (2 ، 5، 6 ، 7) ثم يليها للناحية الغربية القاعة (B) التي يلاحظ أن لها جدران : الجدار (9) والجدار (10) ويظهر بأن الجدار (10) كان هو الأقدم ثم شيد الجدار (9) ليدعمه ربما لضعف الجدار الأول عن حمل السقف. وتظهر بقايا أساس الجـدار (11) الذي تليه القاعة (C) . أما للناحية الجنوبية فكانت هنـاك ثلاث حجرات صغيرة نسبياً وهي , D , E , F .



صورة المبنى أ في جرمة القديمة ، حفائر مصلحة الآثار الليبية

Structure B

H

M

G

N

F

E

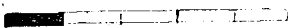
D

A

C

B

Scale 1 : 100



المبنى ب — حفائر مصلحة الآثار الليبية



المبنى ه — حفائر مصلحة الآثار الليبية

ولا تزال توجد على الجدران الداخلية آثار التملعيج والطلاءِ الملون . وقد عثر عند الطبقات المختلفة لهذا المبني على الكثير من قطع الفخار والمعادن والزجاج وغيرها ، علاوة على بعض القطع من الذهب المصنوع ، وكذلك بعض عقود الزينة المصنوعة من الفيروز الأَخضر وبيض النعام .

ومن المظنون أن هذا المبنى كان مسكناً لأَحد التجار الأَثرياءِ من سكان جرمة ، وقد وجِد إلى جوار المبني بقايا الأَعمدة والأَفاريز مما يوحي بأَن هذا المنزل قد شيد حوالي أواخر القرن الأَول الميلادي ، وأنه ظل مستعملاً حتى أواخر القرن الرابع الميلادي وربما أوائـــل القرن الخامس أيضاً . وهناك من الأَدلة ما يشير إلى أنه إستهدف لعدة كوارث ، منها الحريق ربما بفعل المغيرين أو ربما شبَّ الحريق تلقائياً ثم أُعيد البناءُ ورمِّم مرة ثانية وأُعيد إستعماله مرة ثانية ، ولكن في المرة الأَخيرة كان هذا المبني يعتبر كمبني ثانوي .

وإلى الشمال من المبنى السابق عثرنا في حفرياتنا

على المبنى «B» الذي لم يتبق منه سوى أساساته فقط. ويظهر أن المبنى الثاني كان عبارة عن حمّامات وقد شيدت الأَحواض فيه بقوالب من الطوب الأَحمر، بعضها مفرغ ويظهر فيه مكان قنوات الماء، كما يظهر فيه المكان الذي كان يوضع فيه الوقود اللازم لتسخين الماء. ويظهر أن إنشاء هذا المبنى كان معاصراً المبنى الأَول إلاَّ أنه يظهر أنه ظل مستعملاً مدة أطول من سابقه. وتظهر فيه الجدران (M, C, B, A) كما تظهر فيه الأَحواض (H, G, F) والقاعات (E, D).

وإلى الشمال الغربي من المبنى السابق عثرنا على بقايا أبراج وسور (D, C) ويظهر من فحص هذا المبنى أنه شُيِّد في عصر تال لتشييد المباني (B, A) ربما في القرن الخامس الميلادي أو ما بعده. وربما شيد هذا المبنى الذي ترتفع أرضية أساساته عن أرضية أساسات المباني الأُولى، والذي شيدت جدرانه بكتل غير منتظمة من الأَحجار التي ربما تكون قد أُنتزعت من مباني سابقة. ربما شيد ذلك السور ليحيط بقسم من المدينة بقصد تضييق الأَسوار

الدفاعية عن المدينة .

وإلى الغرب من السور السابق عُثر على بقايا مبنى يمكن أن نستدلَّ من الدرجات التي ترقى إلى أعلاه ، ومن أساساته وجدرانه أنه كان معبداً صغيراً (E) وربما كان التمثال البرونزي الصغير الذي عثر على رأسه بذلك المبنى يمثِّل وجه الاله جراما ، الجد الاسطوري للجرامنت .

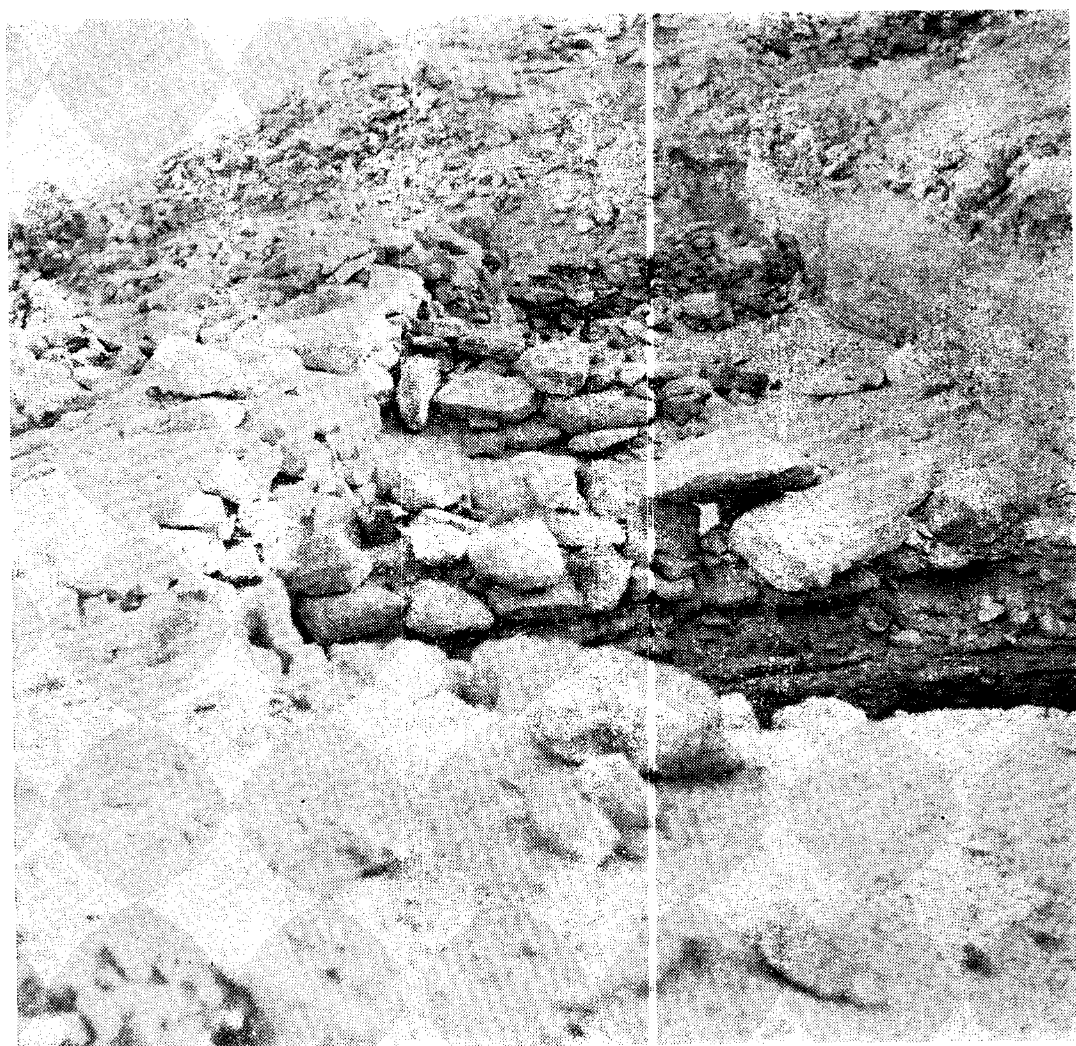
وتدلُّ هذه الحفريات أن جرمة القديمة قد بدأ الجرامنت في بنائها في القرن الأَول الميلادي ، ثم بلغت قمة إزدهارها في خلال القرن الثالث الميلادي ، حيث قامت فيها المنازل المشيدة على الطراز الاغريقي والروماني من الحجر ، وأُقيمت بها الحمَّامات ونظم المجاري وربما كانت بها قناديل لإِضاءة الشوارع أيضاً . إلاَّ أن ذلك الإِزدهار لم يستمر لأَبعد من القرن الخامس الميلادي ، إذ أخذت عوامل الفناءِ والفقر تزحف رويداً رويداً ، حتي هُجِّرت المدينة وأصبحت أطلالاً دارسة وزحفت الأَتربة والرمال لتغطي الموقع . وفي القرن الخامس عشر الميلادي أو قبله بقليل ، رجع الناس لسكني نفس البقعة ،

إلاَّ أنهم في هذه لمرة شيدوا منازلهم من قوالب اللبن ، وحطموا أحجار المباني القديمة ليدعموا بها مبانيهم الفقيرة . وشيَّد الحاكم الجديد القلعة التي عرفت باسم القصبة ، وشيد بالمدينة ثلاثة مساجد على الأَقل ، إلاَّ أن جرمة القديمة لم ترق لأَكثر من قرية كبيرة في هذه الفترة . ثم بدأ إضمحلالها السريع فهجرت المنازل وفارقها أهلها وأصبحت جرمة بمرور الزمن جزءاً من غابة النخيل التي حولها . وزارها في القرن لتاسع عشر بعض الرحالة الأُوروبيين الذين وصفوا فقر البلدة ، إلاَّ أنهم لم يعرفوا بأَنه توجد تحت هذه المنازل المشيدة من الطين آثار مدينة قديمة عفى عليها الزمان . أما البعثة الايطالية التي زارت الموقع ، وأجرت الحفريات بجبانات وادي الأَجال ، فإنها كانت تظن بأَن جرمة القديمة كانت تقع بالقرب من الموزاليوم ، وأنها زالت من الوجود تماماً بفعل التخريب الذي تعرضت له نتيجة للحروب والاضطرابات ، ولم يبدأ الحفر عن المدينة القديمة Garama Metropolis إلاَّ في سنة ١٩٦٢ على يد مصلحة الآثار الليبية ، حين أناطَت بي القيام بهذه المهمة .

حفريات بعثة الأكاديمية الملكية البريطانية سنة ١٩٦٥ (٣٩)

في سنة ١٩٦٣ قام بزيارة مواقع الحفريات بجرمة ، كل من الطيب الذكر البروفسور السير ريتشمند أستاذ كرسي الآثار بجامعة أكسفورد ، والدكتور دانيال الأستاذ بجامعة نيوكاسل ، وبعد فحص الموقع وجد أنه لا بد من معاونة بعثة من الأكاديمية الملكية البريطانية للوصول إلى نتائج مرضية فيما يتعلق بإجراء حفريات علمية لها قيمتها في المنطقة ، بعد أن تبين للأساتذة الزائرين أنه توجد في جرمة فعلاً آثار تستحق الكشف والمعرفة .

وفي سنة ١٩٦٥ تمَّ فعلاً إعداد بعثة تحت رعاية الأكاديمية الملكية البريطانية بالتعاون مع جامعة نيوكاسل ، وقامت البعثة برآسة الدكتور دانيال بالحفر في المواقع



من حفائر بعثة الأكاديمية الملكية البريطانية بزنككرا — جرمة

التالية : ـ

أ ـ جبل زنككرا

ب ـ جرمة القديمة

جـ ـ سانية جبريل

أ - جبل زنككرا

قام البروفسور ريتشمند سنة ١٩٦٣ بحفر خندق إختبار عند أساسات المبني « A » وفي أماكن مختلفة من جرمة القديمة ، إتضح منه أن أقدم مستقر بجرمة القديمة لا يرجع لأبعد من القرن الأول الميلادي ، وهذا يعني بأن الجرامنت الذين ذكرهم هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد ، إنما كانوا يسكنون في مكان آخر قبل مجيئهم للسكنى في جرمة القديمة وكان هذا هو السبب الذي حدا بنا للاتجاه بأنظارنا إلى حيث عثر كابوتو الايطالي على مستقرات جرامنتية يرجع تاريخها لما قبل الميلاد. وفعلاً بدأنا العمل بزنككرا التي تبعد حوالي الميلين للجنوب الغربي . وقد لاقت حفرياتنا هناك بعض النجاح لتحقيق

هذه الفكرة. وبالقرب من قاعدة الجبل وفي الثلث الأول من المنحدر تقريباً؛ عثرنا على رصيف صخري شيدت عليه مجموعة من المباني التي أُقيمت من قوالب الطوب أَو كتل صغيرة منتظمة من الأَحجار. وقد وسعنا حفرياتنا لأَعلا لنعثر على مستقرات شبيهة في المنحدرات العليا، مما يدل على أَن سفح الجبل كان مسكوناً. وقد عثرنا أَثناء الحفريات على ما يدل على أَن عدداً كبيراً من الأَبقار كانت ترعى على هذه السفوح، إذ وجدنا بقايا روث الأَبقار بكثرة ملفتة للنظر، كما عثرنا على بقايا عدد كثير من الأَشجار، مما يدل على أَن هذه المنطقة الصخرية الجرداء كانت يوماً ما مغطاة بالأَشجار والأَعشاب. ولم نعثر في حفرياتنا هناك على أي فخار يرجع للعصر الروماني، رغم أَن بعض المباني قد تم الكشف عنها تماماً. وقد عثرنا على عدد لا بأْس به من شقاف الفخار الأَسود اللون المحلى بالزخارف التي تنتمي للعصر الحجري الحديث. كما عثرنا على الكثير من الأَدوات المصنوعة من الحجر والعظام. ويدل التعارض الواضح بين المخلفات التي

وجدت بزنككرا وتلك التي وجدت في موقعي جرمة القديمة وسانبة جبريل أَن جبل زنككرا كان قد هُجر تماماً عندما بدأَت البضائع الرومانية تفد إلى وادي الأَجال .

ب - جرمة القديمة

ويشير التقرير الذي كتبه الأُستاذ رتشموند إلى المساعدة العلمية التي تفضل فأَسهم بها بقوله « بناء على طلب مراقب الآثار السيد محمد أَيوب تقدمنا بالمساعدة في بحث الكثير من المشكلات المعلقة وكان أَهم تلك المشاكل هي :

١ ـ طبيعة المباني التي تم العثور عليها في حفريات الأُستاذ أَيوب وإعطاء تأْريخ مضبوط لها ، وكذلك معرفة الغرض الذي من أَجله أُقيمت هذه المباني . وقد دلت الدراسات التي قامت بها هذه البعثة أَن هذه المباني العظيمة قد أُقيمت على الطراز المحلي الصحراوي ولكن بشكل أَروع وأَعظم من أَي مبنى سابق لهذا التاريخ .

٢ ـ كانت المشكلة الثانية هو عمل تأْريخ متتابع للفخار الجرامنتي الذي عثر عليه هناك ، ولا شك بأَن عمل مثل ذلك التأْريخ سيساعد مستقبلاً على تأْريخ المواقع الجرامنتية المختلفة . وللوصول لهذه النتيجة فقد قمنا بعمل عدد من الحفر والخنادق لأَخذ نماذج من شقاف الفخار في الطبقات المتتابعة المختلفة وعمل دراسات عليها وكانت هذه الطبقات تغطي جميع الفترة المحصورة من القرن الأَول حتي يومنا هذا .

ج - سانية جبريل

إسترعى إنتباهي ما ورد في أَحد تقارير الأُستاذ أَيوب من أَنه عثر على أَفران لصنع الفخار في الموقع المعروف بإسم سانية جبريل . وهو موقع يقع شرق سور جرمة القديمة مباشرة . وقد قمت بفحص المنطقة ، وإجراءِ بعض الحفائر بها ، وقد عثرت بها على سلسلة من المساكن المبنية من اللبن وقد عثرنا بتلك المساكن على عدد كبير من شقاف الفخار المحلي وكانت جدران إثنين من المساكن

على الأَقل مطلية بالجير أَو الجص ومزخرفة باللون الأَحمر. ويظهر بأَن هذا الموقع كان مسكوناً خلال القرن الأَول والثاني الميلادي.

حفريات بعثة الأكاديمية البريطانية سنة ١٩٦٧ (٤٠)

عادت البعثة مرة ثانية لتستأنف حفائرها سنة ١٩٦٧ وقد تركز عملها في هذه المرة على موقع جبل زنككرا. وقد قسمت البعثة بحوثها، فاختص قسم بالحفر فوق القمة بينما أخذ قسم آخر على عاتقه إكمال حفريات المنحدرات وأسفل الجبل.

وقد عثرت البعثة على جزءٍ آخر من السور الموجود بالقرب من قاعدة الجبل والذي سبق أن عثر بعثة كابوتو سنة ١٩٣٤ على جزءٍ منه. ويرى الدكتور دانيال أن ذلك السور كان يحيط تماماً بالمستقر الذي شيد على المنحدرات، وقد دل العثور على بعض أواني من مادة السجلاتا الرومانية على أن سكنى الموقع قد استمر حتى

العصر الروماني المبكر .

أما على القمة فقد عثر على بعض المستقرات التي ربما تكون قد شيدت قبل المنازل أو الفيلات .

ورغم أن وضع تأريخ نهائي للموقع لا زال بعيد الإحتمال قبل القيام بسلسلة أخرى من الحفائر ، إلاَّ أنه يمكننا أن نقول بأن المستقر كان قائماً منذ العصر الحجري الحديث ، وكان الموقع غير محمى . ويبدو أن السكان وقطعانهم كانوا يلجأون إلى القمة إذا ألمَّ بهم أي خطر . وبعد ذلك أقيم السور ليحمي السكان وحيواناتهم . وقد أقيمت في تلك الأثناء المنازل الصغيرة المبنية على السفح من قوالب اللبن أو كتل الأحجار المنتظمة الصغيرة ولم يحل القرن الأول قبل الميلاد أو القرن الأول الميلادي حتي كان الموقع كله يزخر بالمنازل الصغيرة المبنية بالحجر . ويظهر أنه إبتداءً من القرن الأول الميلادي أخذ السكان يهجرون زنككرا ليبنوا مدينة جديدة في قلب الوادي وهي التي تعرف اليوم بجرمة القديمة .

(1) Oric Bates; The Eastern Libyans P 211.

(2) Breasted, Ancient Records I P. 335.

(3) Oric Bates; ibid P. 49.

(4) Henri Lhote; The Search for the Tassili Frescoes P. 125 ff.

(5) Arkell; A history of the Sudan P. 114.

(6) Arkell; ibid P. 136.

(7) Herodotus; IV, 174.

(8) Herodotus; ibid, 183.

(9) Apollonius of Rhodes; The voyage of Ango Kanto IV.

(10) Strabo; Geography II. 5.

(11) Strabo; ibid XVII. 2.

(12) Pliny; Natural History V 4.

(13) Pliny; ibid 5.

(14) Pomponius Mela; De Situ Orbis I, C, 8.

(15) Plotemy; Geography IV 7.

(16) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم . ولد بالفسطاط بمصر وعاش بها خلال القرن التسع الميلادي ويعد كتابه « فتوح مصر والمغرب » من أهم المراجع الصادقة في تاريخ فتوح العرب لشمال أفريقيا خلال القرن السابع الميلادي .

(17) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب صفحة ٢٦٢ وما بعدها

(18) اليعقوبي : « البلدان » صفحة ٩٧ وما بعدها .

(19) المسعودي : « مروج الذهب » الجزء الثاني صفحة ٢٠ وما بعدها .

(20) البكري : « المغرب في كر بلاد افريقيا والمغرب » صفحة ١٠ وما بعدها .

(21) ياقوت الحموي : « معجم البلدان » المجلد السادس حرف الفاء فزان صفحة ٣٧٤ .

(22) التيجاني : « رحلة التيجاني » صفحة ١١٠ وما بعدها .

(23) Hornemann; Journal of Travels... travels from Cairo to Murzouk. London 1802.

(24) Lyon; A narrative of travels in North Africa London 1821.

(25) Denham, Clapperton and Oudeny; Narrative of travels and discoveries in Northern and central Africa P. 70 ff.

(26) Duveyrier; Les Touareg du Nord, Paris 1864.

(27) Grasiosi; Rock Art in the Libyan Sahara P. 22 ff.

(28) Grosiosi; ibid P. 25 ff.

(29) Grosiosi; ibid P. 29 ff.

(30) Caputo; Soavi Sahariani P. 220 ff.

(31) Caputo; ibid P. 239.

(32) Caputo; ibid P. 252 ff.

(33) Caputo; ibid P. 292 ff.

(34) لم يكن كابوتو يعرف أنه توجد تحت منازل الطين المشيدة في جرمة القديمة والتي ترجع للعصر الاسلامي منازل مبنية يكتمل من الحجر وهي التي ترجع لعصر بناء هذه الجبانة وذلك أن البعثة الايطالية سنة ١٩٣٤ م لم تجر حفريات بمدينة جرمة القديمة .

(35) Caputo; ibid 306.

(36) Pierre Bellair; Mission au Fezzan, seputures de l'ouadi El Ajal P. 81 ff.

(37) Ayoub; Excavations in Germa P. 11 ff.

(38) Ayoub; ibid P. 23 ff.

(39) Danials C.; Interim Report of Work carried out by the 1965 expedition to Fezzan Libya.

(40) Danials C.; Interim Report of Work carried out by the 1967 expedition to Fezzan.

الفصل الثاني

جرمة - نشأتها ونهضتها

لم نتوصل إلى الآن إلى معرفة أَصل الجرامنت ولا الموطن الأَول لهم ، كما أَننا لا نعرف على وجه التحديد الزمن الذي جاؤوا فيه إلى فزان ، ولقد قدَّم الذين أَولوا الموضوع بعض العناية عـدة إحتمالات عن أَين جاءَ الجرامنت والزمن ، على وجه التقريب ، الذي ظهروا فيه في جنوب ليبيا .

يرى بعض المؤرخين أَن قصة الجرامنت تبدأْ بظهور قبائل البحر المتوسط من الكريتيين والصقليين وأَهل سردينية الذين هاجروا من بلادهم في أَعقاب الزلازل التي حدثت في القرن الحادي عشر الميلادي والتي دمرت

مدنهم وأَغرقت بعض أَجزاء من جزرهم. إلتجأَت تلك القبائل إلى السواحل الشرقية والجنوبية للبحر الأَبيض المتوسط، وجاءَ فريق منهم إلى سواحل برقة وطرابلس وامتزجوا بالقبائل الليبية المحلية بالمصاهرة والتجارة. ومن ليبيا خرجت هذه القبائل لتهاجم حدود فراعنة مصر في القرن العاشر قبل الميلاد وبعد معارك مريرة فشل الغزو، وتحولت الجيوش المصرية من موقف الدفاع إلى الهجوم، فارتدت هذه القبائل صوب برقة إلاَّ أَن بعضها غيَّر إتجاهه لسبب غير مفهوم واتجه نحو فزان حيث وجد فيها واحات غنية بالمراعي وجبالاً غنية بالمعادن، وفوق كل شيءٍ تمكنت من أن تصل إلى منطقة السافانا الافريقية الغنية عبر منطقة صحراوية سهلة، ولم يجدوا أمامهم في فزان سوى شعب ضعيف مسالم تغلبوا عليه بكل سهولة(١). هذه الرواية تفترض أول ظهور الجرامنت بفزان في حوالي القرن العاشر قبل الميلاد.

ويرى آخرون إستناداً إلى الأَساطير الاغريقية أن قبائل الجرامنت والنسونيين أصلهم فعلاً من قبائل البحر

المتوسط التي هاجرت في القرن العاشر قبل الميلاد ، إلاَّ أنهم يخالفون الرأي الأَول في أن هذه القبائل قد نزلت على شواطيءِ خليج قابس وفي جزيرة جربا(٢) . وأنهم إمتزجوا بالأَهالي الوطنيين وظلوا هناك حتى جاء المستعمرون الفينيقيون في القرن الثامن قبل الميلاد وطردوهم من الساحل فاضطروا بدورهم على الإندفاع إلى الداخل فجاءوا إلى فزان عن طريق واحة غدامس وأدري إلى وادي الأَجال . وهذا الرأي يفترض أول ظهور الجرامنت في فزان في وقت ما بعد القرن الثامن قبل الميلاد.

ومن الجائز أن يكون أصل الجرامنت من سبوه . فقد قامت في تلك الواحة مملكة قوية إشتهر أمرها في القرن الخامس قبل الميلاد ، وقد كان لهذه المملكة نفوذ روحي وسياسي على القبائل الليبية نظراً لقيام معبد آمون الكبير بها . ولقد تصدت مملكة سبو لمقاومة الغزو الفارسي الذي نجم في الاستيلاءِ على مصر في القرن الخامس قبل الميلاد ، وأخذت هذه الواحة المنعزلة في الصحراءِ تثير العالم القديم ضد العملاق الفارسي بما

كانت تذيعه من نبوءات عن هزيمة الفرس. وانتشرت أنباء هذه النبوءات في بلاد اليونان ، ووجد اليونانيون فيها حافزاً ساعدهم على التكتل لمقاومة التوسع الفارسي في بلادهم . ووجد العاهل الفارسي قمبيز أن خير ما يمكن أن يفعله هو أن يرسل جيشاً للقضاءِ على هـذه الواحة الصغيرة الموجـودة في أقصى الصحراءِ. وخرج الجيش الفارسي الكبير من الاقصر إلى الواحة الخارجية ومنها إلى الداخلة فالفرافرة ، ولكنه إختفى قبل أن يصل يصل إلى سبوة وقيل ان عاصفة رملية عاتية قد هبت عليه وأهلكته ، وقيل انه ضل الطريق وفني. واعتبر هذا من معجزات لاله آمون حامي سبوه(٣). ويظهر أن كهنة سبوة قد شعروا بالخطر إذ أنه لو رتبت أُمور الحملة الفارسية التعيسة الحظ لنجحت في غزو سبوة ولما أجدى آمون لعباده شيئاً. ومن المحتمل أنهم رتبوا أُمورهم في التقهقر غرباً إذا ما تعرضوا لخطر آخر فأَرسلوا جيشاً إلى فزان. ويظهر أن قسماً من سكان الواحة قد هاجر فعلاً وأقام في واحات فزان وعرفوا هنـاك باسم الجرامنت .

ويرى عدد قليل من المؤرخين اليوم صحة القصص القديمة التي تقول ان الفلسطينيين الذين هاجروا من بلادهم بعد أن تغلب داود ملك اليهود على جالوت ، قد هاجروا من أوطانهم إلى مصر إلاَّ أن المصريين لم يرحبوا بهم ، فشدوا رحالهم غرباً إلى ليبيا واستقرت مجموعة منهم في فزان وهم الذين عرفوا بالجرامنت(٤).

أما الأَدلة الأَثرية فما زالت محدودة الفائدة لقلتها ، كما وأن الآثار التي أمكن العثور عليها وجدت أغلبها في حالة بالية بعد أن أتى عليها اللصوص أو دمرتها عاديات الزمن ولم يعثر إلى الآن على وثائق مكتوبة ذات قيمة يمكن أن تلقي ضوءاً ولو يسيراً على أصل الجرامنت.

ولعل المؤرخ الاغريقي هيرودوت أول من ذكر الجرامنت. فقد قال الكاتب اليوناني القديم أن الجرامنت من سماهم بالأَثيوبو تروجلودي(٥) في عربات تجرها أربعة جياد. ويفهم من وصف هيرودوت للتروجلودي أنهم كانوا قوماً بدائيين شديدي التزنج وقعوا فريسة لقبائل الجرامنت القوية.

ويروي هيرودوت أن الجرامنت كانوا أيضاً مزارعين ورعاة وأنه كانت لديهم نوع من الثيران الطويلة القرون السميكة الجلد (٦).

ولا نعرف على وجه التحديد حقيقة العلاقات بين الجرامنت وجيرانهم من القبائل الليبية أو المستعمرين اليونان والفينيقيين الذين أنشأوا لأنفسهم مدناً على الساحل ، وهناك بعض الشذوات في كتب الأقدمين تشير إلى وجود علاقات تجارية بين جرمة وهذه المدن ، إذ تشير إحدى الكتب القديمة أن تاجراً فينيقياً يدعى ماجو Mago عبر الصحراء ثلاث مرات بتجارته مع قوافل الجرامنت(٧) ، ويصرح سترابو أن الجرامنث كانوا يأتون إلى المدن الساحلية للإتصال والتجارة مع العالم الروماني(٨). ولا يستبعد وجود جنود مرتزقة من الجرامنث في صفوف هانيبال القرطاجي ، كما أنه من المرجح أن الجرامنت هم الذين ساعدوا مسينسا الأول في إسترداد عرشه من غريمه سيفاكس(١٠) وقد حاربوا أيضاً في صفوف الملك النوميدي في معركة زاما سنة

٢٠٤ ق. م. وهي المعركة التي فاز فيها الرومان وحليفهم مسينا على قرطاج(١١) وبإنتهاءِ قرطاج وزوالها من الوجود سنة ١٤٦ ق. م. إنتقلت سيادة شمال أفريقيا إلى قبائل النوميديين وملكهم مسينسا الذي إمتدت أملاكه من سرت شرقاً حتي الجزائر غرباً، وشيد عاصمته «سرتا» قرب قسطنطينة الحالية وبناها على الطراز القرطاجي. وانتقلت معالم الحضارة اليونية التي أينعت في قرطاج إلى سرتا حيث عبد الليبيون الالهة الفينيقية وتثقفوا بالعلوم والمعارف القرطاجية وحاكوا الفينيقيين في العمارة والزراعة وأساليب الحياة. أصبحت مملكة نوميديا بعد تمدنها مثالاً يحتذى للقبائل الليبية التي عاشت في الداخل، فأَخذوا بدورهم يقتبسون منها أساليب الحياة ووسائل المعرفة. وإذا كانت مملكة نوميديا قد نجحت في ضم جميع القبائل الليبية الساكنة غربي سرت تحت سلطانها فقد ظلت القبائل الموجودة بالصحراءِ مستقلة عنها، وكانت أقوى هذه القبائل هي التي تسكن فزان وتعرف بالجرامنت. وكما زالت قرطاج من الوجود فقد عمل

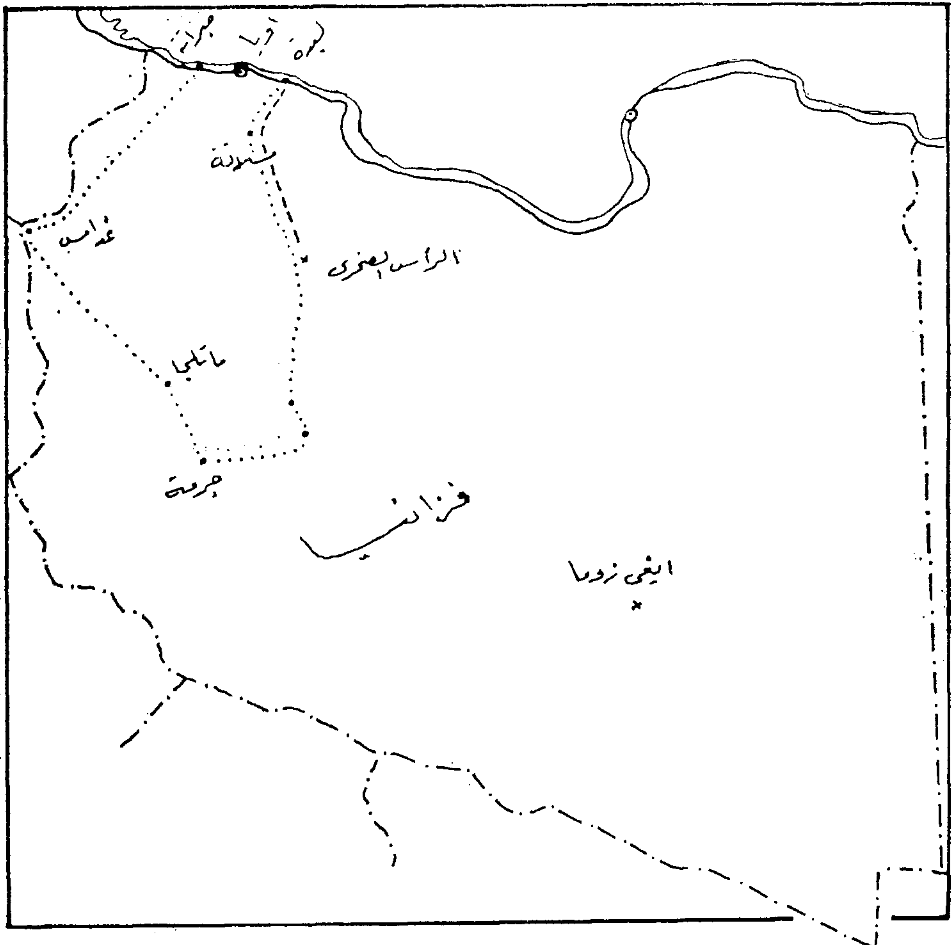
الرومان على إزالة المملكة النوميدية أيضاً واستعملوا لذلك نفس أساليبهم التي سبق وأن استعملوها ضد قرطاج ، إذ أخذوا يثيرون الفتنة والبغضاء بين أفراد الأَسرة المالكة وهم أحفاد مسنيسا الأَول ، كما أنهم أخذوا يؤلبون القبائل الليبية الأُخرى على نوميديا ونجحوا في نهاية الأَمر من تدمير هذه المملكة التي كان لاقبالها الفضل في إنتصار الرومان على القرطاجيين.

وبإضمحلال سرتا إنتقل البناؤون والتجار وأرباب الحرف إلى الدولة التي ورثت ثقافة قرطاج وكانت هذه الدولة هي جرمة ، فازدهرت جرمة وبدأ يدب فيها نشاط جديد في الأَيام السابقة لميلاد المسيح ، ويظهر أن سياسة روما بشمال أفريقيا كانت تدور حول إبقاءِ جميع القبائل الليبية ضعيفة حتي لا تستطيع مناوءة النفوذ الروماني على شواطيءِ القارة ، ووجدت روما أن مملكة جرمة ستصبح خطراً عليها إذا إستمر تمدنها على ذلك النحو الذي بدأت فيه عقب إضمحلال نوميديا ، فأَرسل يوليوس قيصر أحد قواده المغمورين وكان إسمه

حملة كورنيليوس بالبوس والامبراطور فاسبازيان

.... بالبوس

----- فاسبازيان



كورنيليوس بالبوس Cornilius Balbus على رأس فيلق روماني سنة ١٩ ق.م. وخرج هذا الفيلق من صبراته حيث وجه ضربة سريعة للجرامنت مكتسحاً في طريقه غدامس وتقول المراجع الرومانية أنه غزا جرمة وعدداً من المدن والقبائل، ويظهر بأنه عاد من طريق آخر غير الذي جاء منه وربما عاد عن طريق وادي زيزامت ومصلاته(١٢). ولا زالت هذه الحملة وأخبارها موضع جدال بين المؤرخين، إذ يرى بعض المؤرخين أن الأنباء التي يرويها بليني مبالغ فيها ودليلهم في ذلك أنه لم يعثر بفزان على أي أثر يدل على وصول الرومان في هذا التاريخ المبكر إلى فزان، كذلك لم يوجد بالصحراء أي نصب تذكاري أو نقش أو أي شيء مما إعتاد الرومان أن يخلدوا به إنتصاراتهم في البلاد المفتوحة، كما أن النصوص الرومانية تشير إلى أن الجرامنت كانوا يحاربون بعد مرور أقل من مائة سنة من حملة بالبوس على ساحل طرابلس، ولا يمكن أن يعقل ذلك الأمر إن لم يكن الجرامنت قد طردوا الرومان من فزان أولاً. كما أنه

يستشف من أخبار بليني أنه هناك بعض الشك في كثير مما نسب إلى بالبوس من فتوحات وليس هناك من دليل على أن حملة بالبوس كانت حملة صغيرة محدودةالنتائج. إن سترابو المؤرخ الروماني المعاصر لتلك الحملة لم يذكر عنها شيئاً. والأقرب إلى الصواب أن الحرب بين الرومان والجرامنت بدأت فعلاً في سنة ١٩ ق.م. بحملة بالبوس إلاَّ أنها إستمرت حتي عهد فاسبازيان حيث تقدمت قوات جرمة لمساعدة أويا Oea في حربها ضد لبده سنة ٧٠ م. إلاَّ أن الرومان بقيادة فالريوس فستوس Valerius Festus نجحوا في الإستيلاء على Oea وفي صد الغزاة عن أسوار لبده، ونشاهد على بعض الموزايكو الذي عثر عليه في إحدى ضواحي لبده مناظر تمثل بعض الاسرى الجرامنت التعساء وهم يقدمون كطعام للأُسود في حلبات لبدة. ولا يعرف من نتائج الحرب في عهد فاسبازيان إلاَّ أن الرومان كما يقول بليني لم يستطيعوا أن يتوغلوا إلى أبعد من الجبال الواقعة جنوبي مزدة بقليل، ويظهر أن العلاقات ظلت عدائية حتى عهد دومتيان، إذ قابل

هذا العاهل سفارة جرامنتية في جنوب بلال الغال ، وفي هذه المقابلة تم عقد حلف ساعدت روما بمقتضاه ملك جرمة في إعادة فتح طرق التجارة مع البلاد الواقعة للجنوب من الصحراء الكبرى . وقد كانت هذه المعاهدة سبباً في علاقات الو. والاخاء التي سادت بين الأمبراطورية الرومانية ومملكة جرمة ، كذلك إزداد حجم المبادلات التجارية بين عالم الحر المتوسط وبلاد السافانا الافريقية عن طريق جرمة ووصلت التأثيرات الرومانية إلى جرمة نفسها(١٤) وفي مدى قرنين من الزمان أصبحت جرمة مدينة الصحراءِ الكبرى ، كما كانت قرينتها بالميرا مدينة صحراءِ الشام .

ويمكن أن نجمل الأَحداث السياسية منذ نشأَة جرمة إلى نهايتها في السطور التالية : بوصول المستعمرين الأَغريق إلى برقة والفينيقيين إلى سواحل طرابلس الغرب هاجرت بعض القبائل الليبية إلى الداخل . وبمرور الزمن إشتد العداءُ بين القادمين الجدد والقبائل الليبية الأَصلية التي ظلت في مواطنها مجاورة للمدن المسورة التي أقامها المهاجرون

من الأغريق والفينيقيين. ونظراً لاحتفـاظ القادمين بلغتهم وثقافتهم فقد ظلت هوة الخلاف قائمة بينهم وبين الليبيين طوال التاريخ رغماً عن حدوث إختلاط على نطاق محدود بين الفريقين(١٣). وبمرور الوقت ضعفت المدن الأغريقية والفينيقية نتيجة لانقطاع معين المهاجرين القادمين من بلادهم الأصلية والذين كانوا شريان الحياة لهذه المدن. وفي الوقت المناسب ظهر الرومان وتولوا حمايه ما يسميه مؤرخو أوربا اليوم -بنور الثقافة الغربية في أرض القارة السوداء-(١٤) والحقيقة أنه لولا ظهور الرومان على مسرح الأحداث بليبيا في الأيام الأخيرة للقرن الأول قبل الميلاد لجرفت القبائل الليبية أمامها المدن الأغريقية والفينيقية كما جرفت سيول الفرس المدن الهلنستية الأغريقية التي أنشأها الاسكندر المقدوني وخلفاؤه في البلاد الواقعة إلى الشرق من ميزوبوتاميا بآسيا.

كان نتيجة الصراع بين روما وقرطاج الذي انتهى في القرن الأول قبل الميلاد بزوال قرطاج أن أصبحت

روما سيدة غرب البحر الأَبيض المتوسط ، وأدت الأَحداث التالية إلى سيادة الرومان على شرق البحر الأَبيض المتوسط وتوغل الرومان خلف بلاد البحر المتوسط فوصلوا شرقاً إلى ضفاف الفرات وعبروا المانش غرباً إلى إنجلترا ولكن ظلت حدودهم بأَفريقيا تتاخم حدود الصحراءِ الواقعة خلف السهل الساحلي. ولم يتوغلوا في القارة إلاَّ في تونس ونوميديا وموريتانيا حيث كانت الأَمطار والعيون والآبار توفر كمية معقولة من المياه تساعد على قيام المزارع. أما ليبيا فقد إستولى الرومان على المدن الأَغريقية ببرقة ، كما بسطوا نفوذهم على المدن الفينيقية بطرابلس. أما الداخل فقد ظل بعيداً عن متناول جيوشهم حتى سنة ١٩ ق.م. وفي ذلك العام الذي كان يوافق حكم قيصر إخترق طابور روماني بقيادة ضابط مغمور إسباني المولد قرطاجي الأَصل يدعى كورنيليوس بالبوس Cornilus Balbus (١٥) حدود مملكة جرمة مستولياً على غدامس التي في قبابَة صبراته ثم اخترق الصحراء إلى أدري بوادي الشاطيء ويظهر أنه فاجأَ بظهوره جرمة بعد أن إخترق صحراء

أوباري ويفهم من رواية بليني أن الرومان لم يستقرُّوا بعد هذه الحملة بجرمة كما أن الحفريات لم تظهر ما يدل على أن هذه الحملة قد نجحت في إخضاع فزان للنفوذ الروماني. ويظهر أن الجرامنت قد نجحوا في طرد الرومان في زمن ما بعد عام سنة ١٧ ق.م. أو أن بالبوس نفسه وجد مركزه محفوفاً بالخطر فآثر الرجوع إلى لبدة عن طريق آخر هو طريق وادي زيزامت وجبال مسلاته. ويظهر أن الحرب إستمرت سجالاً بين الطرفين حتي ظهرت قوات جرمة فجأة على أبواب أويا Oea لمساعدة هذه المدينة في حربها ضد لبده Leptis واستنجد أهل لبدة بالرومان وجاء القائد الروماني فالريو فستوس Valerius Festus وتمكَّن من الاستيلاء على أويا ومن صد الجرامنت عن لبدة بل ونجح في التقدم جنوباً حتي التلال الواقعة في المنطقة التي تعرف اليوم باسم الشويرف، وهي التي يسميها بليني بالمنطقة الواقعة خلف الرأس الصغرى. ولكن الرومان لم ينجحوا في التوغل للجنوب من هذه المنطقة لقيام الجرامنت بقطع خطوط

تموينهم ولتدميرهم لآبار خلفهم ومنذ ذلك الوقت شرع الرومان في بناء خط الحصون للدفاع عن أملاكهم في الشريط الساحلي وذلك في المنطقة الجبلية الممتدة من جرزة حتى جادو وغريان.

وبنهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني سئم الرومان والجرامنت هذه الحروب التي لم تصل إلى نتيجة حاسمة. ويظهر أن الأحداث السياسية التي تلت وقوع صدام مسلح بين الرومان والنسمونيين وهم قبيلة مجاورة للجرامنت وكانوا قبلاً على علاقة ود مع الرومان وربما كانوا قد ساعدوهم أيضاً ضد الجرامنت، أدت هذه الحوادث إلى أن يقبل الرومان مبدأ الصلح مع الجرامنت. وفي نفس الوقت أنهكت هذه الحرب قوى مملكة جرمة فقد أقفلت الحرب أسواق لبدة وصبراته وأويا في وجه التجارة الجرامنتية، كما أن قبائل الصحراء الكبرى الموجودة للجنوب من الجرامنت قد قطعوا طرق القوافل وربما أغاروا على حدود جرمة نفسها دون أن يجدوا من يقف أمامهم لانشغال الجرامنت بالحرب في

الشمال ونتيجة لتوالي هذه الكوارث فقد وجدت مملكة جرمة أنه خير لها أن تطلب الصلح من الرومان على شريطة أن يوافق الرومان على إستقلالها وسيادتها.

ويقول أحد المراجع الرومانية أن ملكاً ليبياً يدعى مرسيس Mrsys قد خرج على رأس سفارة لمقابلة الأمبراطور الروماني دوميتيان Domitian في روما. وأن العاهل الليبي لم يجد الأمبراطور في روما فسافر حيث قابله في بلاد الغال (جنوب فرنسا)(١٦). وفي المرجع المذكور ما يدل على أن الملك الليبي هو زعيم قبيلة النسمونيين وأني لأرى بأن الكاتب اللاتيني قد خلط بين زعيم النسمونيين وملك جرمة وهو خطأ كثيراً ما وقع فيه الكتّاب الرومان. فالأقرب إلى الحقيقة هو أن يكون الملك الذي قابل الأمبراطور الروماني جرامنتياً وليس نسمونياً وذلك لأنه في الزمن الذي تمت فيه المقابلة (عام ٨٩ ميلادية) كانت العلاقات عدائية بين النسمونيين والرومان فقد بدأ بين الفريقين بشجار قام بين بعض أفراد قبيلة النسمونيين من سكان نواحي سرت وبعض الجنود الرومان

دخل على أثره السمونيون وذبحوا الحامية الرومانية المعسكرة هناك ، وغنموا التموينات التي بالمعسكر وكان من ضمنها جرار الخمر التي شربها النسمونيون حتي الثمالة . وفاجأت كتيبة رومانية بقيادة سبتيموس فلاكوس Septimius Flacus وفي روايــة أُخرى سوليوس فلاكوس Suellius Flacus المخـورين وأبادتهم (١٧) ثم هاجم القائد الروماني عاصمة النسمونيين ، وربما كانت زلة ، فدمرتها ثم تابعت الفارين منهم في الصحراءِ حتي جبال تيبستي وربما تابعتهم وراءها أيضاً وهذه الحملة هي الأَصل في الفتوحات التي عزيت لفلاكوس في بلاد الأَثيوبيين لأَن الرومان كانوا يطلقون على البلاد التي تسكنها الأَجناس السمراءِ إسم بلاد الأَثيوبيين كما أطلق العرب على نفس البلاد إسم بلاد السودان بمعني السكان السود الوجوه . وقد أعلن الأَمبراطور الروماني لمجلس الشيوخ أن لنسمونيين قد أُبيدوا وبعدها بأَسابيع قلائل تمت المقابلة بين الأَمبراطور دوميتيان وأحد الملوك الليبيين ، فالأَقرب إلى العقل أن يكون هذا الملك من

جرمة وليس من النسمونيين. وهناك دليل أثري، فقد عثر بمقابر الطبقة الرابعة بجبانة سانية هويدي بجرمة على عدد من الفخار المعروف باسم الأَواني السانيونية Sanion Wares المصنوعة في الليزو (١٨) وهي الأَواني التي إشتهرت بلاد الغال (حيث تمت المقابلة) بإنتاجها ومن الجائز أن بعض المرافقين لملك جرمة قد إشترى هذه الأَواني من هناك وحملها إلى جرمة كما أنه من الجائز أن بعض التجار الجرامنت المرافقين للملك قد تعاقدوا مع مصانع الليزو على توريد هذا الفخار الرائع لجرمة. وهناك دليل تاريخي قوي يدعم الرأي القائل بأَن الشخصية التي قابلت الأَمبراطور الروماني كان ملك جرمة أن المقابلة تمخضت عن إتفاقية بين الطرفين الروماني والليبي وهو أن تساعد الحامية الرومانية بلبدة الجيش الجرامنتي في تطهير طرق القوافل جنوبي جرمة من عصابات الأَثيوبيين. وبطبيعة الحال فإن ملك النسمونيين ما كان ليطلب مثل هذا الطلب لملك جرمة فلا بد وأن الذي حضر المقابلة هو ملك جرمة وفعلاً

وضعت المعاهدة موضع التنفيذ وحضر إلى جرمة القائد الروماني جوليوس ماتيرنوس Julius Maternus وخرج مع ملك جرمة حيث أتما مهمتهمـا في تطهير المسالك والدروب التي تربط جرمة ببلاد أفريقيا الوسطى من عصابات قطَّاع الطرق ، ثم سارا صوب الجنوب لمدة أربعة شهور حتى وصلا إلى بلاد يسميها بليني أجيزيمبا Agisymba التي يصفها بأَنها المنطقة التي يوجد بهـا الخرتيت والفيلة وفرس البحر(١٩). ولقد كانت النقطة التي وصلت إليها هذه الحملة مثار إهتمام كثير من الأُوربيين الذين يهمهم معرفة أول رجل أبيض وصل إلى قلب القارة الأَفريقية فقال الكثير من الكتَّاب إن Agisymba تقع في دارفور في السودان أو حول بحيرة تشاد وقال غيرهم إنها تقع في نيجيريا. وأنني أرى من مقارنة المدة التي قطعتها الحملة من جرمة جنوباً ومن الأَدلة التاريخية المتجمعة من العصور الإسلامية المبكرة بفزان أن جزيمبا تحريف لكلمة أجدز من بلاد النيجر وكانت هذه المنطقة تعرف في العصر الإسلامي

بإسم كوار.(٢٠) وكانت كوار هذه على صلة قديمة بجرمة وكانت عاصمتها خاور ترتبط بطريق للقوافل مع جرمة عبر جبال تسيلي، وكان الطريق القديم يمر خلال المرود العالية المعروفة اليوم بصحراء مرزق إذ كانت هذه المرود الرملية في القرون الأُولى للمسيحية لا زالت أرضاً صخرية صلدة لم تبتلعها الرمال بعد وكان في إمكان خيول الجرامنت وعرباتهم عبورها بكل سهولة وكانت تحرس هذا الطريق قلعتا شربه وقصر مارا، ولما سدت الرمال هذا الطريق في حوالي القرن الخامس الميلادي حول الجرامنت طريق قوافلهم لتمر على الأَرض الصخرية الصلدة لجبال الأَمساك المتصلة بتسيلي والممتدة إلى الغرب من الطريق القديمة.

ولا زال يقيم في النيجر إلى اليوم، وفي نفس المكان الذي وصل إليه ملك جرمة وماتيرنوس قبيلة إسمها جرمة وهم أحفاد الجنود الجرامنت الذين ظلُّوا منذ القرن الأَول الميلادي بذلك المكان. وكان للجرامنت فضل توصيل الفخار الروماني إلى بلاد أواسط أفريقيا ومن

ضمنها مملكة مروى القديمة بالسودان حيث عثر بمقابر ملوكها على كمية كبيرة من الفخار الروماني الذي يرجع إلى مصانع شمال أمريقيا . وربما نقل الجرامنت من مروى معرفتهم في إنشاءِ المقابر الهرمية(٢١).

ويظهر أن سبب نجاح الجرامنت في إبقاءِ سيادتهم على طرق القوافل طوال هذه المدة يرجع إلى إرتباطهم بمعاهدات مع القبائل والشعوب التي تمر بها هذه الطرق وإلى صلاتهم الودية التي حافظوا عليها مع جيرانهم.

* * *

(1) Ayoub; ashort history of Fazzan M. 58 ff.
(2) Apollonius of Rhades; IV.
(3) Ayoub; ibid P. 61 ff.
(4) Oric Bates; P. 257.
(5) Nerodotus; IV, 183.
(6) Ibid.
(7) Warmington B.H.; P. 66.
(8) Strabo; XVII, 835.
(9) Monod; P. 132 ff.
(10) Jsell 5.; vol V, P. 199.
(11) Siluis Italicus, punica.
(12) Pliny; V, 5.
(13) Pliny V 5.
(14) James Wellord; the great Sahara P. 75.
(15) Pliny; ibid.
(16) Ptolomy; I, 884.
(17) Oric Bates; P. 234.
(18) لم يطبع بعد التقرير النهائي لحفريات سانية هوبدى والأواني المذكورة موجودة الآن بمتحف سبها رقم هـ ٤ ، هـ ٥ .
(19) Vivien de Saint Martin; P. 215 ff.
(20) ابن عبد الحكم صفحة ٢٦٢ وما يليها .
(21) Caputo; P. 363.

الفصل الثالث

الحياة الاجتماعية والسياسية

يقول كل من سترابو(١) وملا(٢) أن الجرامنت كانوا يتزوجون بعدد كبير من النساءِ وأنه كان لكل فرد منهم عدد كبير من الأَولاد والبنات ويظهر أن كثرة سكان فزان في عهد الجرامنت كان مرجعه كثرة الحريم لدى الرجال ، وتدل كثرة قبور النساءِ وتفوقها من حيث العدد على قبور الرجال بالجبانة الملكية أن كل ملك من الملوك كان له عدد لا بأْس به من النساءِ والحريم وهي عادة كانت مأْلوفة في اكثر ممالك العالم القديم. ولكن ليس معني هذا أن قيمة المرأة كانت تافهة في نظر الرجل الجرامنتي أو أن الأُنثي كانت في درجة دون

الذكر ، فمن واقع المقابر الفخمة التي أُقيمت لهن بالجبانة الملكية ومن واقع الحلى والأَدوات التي وجدت في تلك المقابر نستنتج أنها كانت مساوية من حيث المركز لقرينها الرجل ، كم وأن عبادة الآلهة تأْنيت وهي أُنثي واعتبارها زعيمة الآلهة يدل على أن مركز المرأة كان محترماً في نظر الرجل بجرمة ومع إحترام المرأة وتقديرها فقد ظل المجتمع بفزان في عهد جرمة يسوده الرجل فهو الذي يحارب وهو الذي يقود القوافل عبر الصحاري والوهاد والنفار. وكان عليه أن يقوم بأَشق الأَعمال بينما كانت انساءُ يقمن بالأَعمال المنزلية الخفيفة أو بالخدمة بالحقول وغيرها من الأَعمال التي لا تتطلب مشقة كبرى. ومن ثنايا السطور القليلة التي تركها لنا بليني عن فزان نستنتج أن السكان في عهد جرمة كانوا ينقسمون بصفة عامة إلى حضر وبدو(٣) كان الحضر يسكنون المدن والواحت حيث توجد الأَسواق التجارية والنخيل والعيون والمزروعات وحيث تتوفر سبل الحياة الهينة وكان يحيط بهذه المدن الواحات في العادة سور

للدفاع أو يوجد بها قلعة لنفس الغرض. وكان الحاكم أو الأَمير وهو الذي كان يملك في العادة أكبر القوافل يسكن في هذه القلعة أو القصر ولا زالت آثار هذه القلاع أو بقايا منها متناثر في واحات فزان إلى اليوم. أما السكان العاديون من عامة الشعب فقد كانوا يسكنون في بيوت صغيرة من اللبن أو في أكواخ من القش أو في خيام من جلود الحيوانات. أما البدو فقد كانوا يتكونون بصفة عامة من الرعاة الذين يتنقلون بماشيتهم من مكان إلى آخر وراء الكلأَ ومن المحتمل أن البدو كانوا هم سلالة الجمافزان وهم سكان فزان الأَصليين الذين تغلب عليهم الجرامنت عند أول مجيئهم للمنطقة.

وإلى جوار هاتين الطبقتين أو الجماعتين كانت توجد جماعة ثالثة وهم الأَرقاء وكانوا يتكونون من أسرى الحرب أو الذين إسترقهم الجرامنت عن طريق الخطف سواء من السود أو البيض على السواء.

كان الملك هو رأْس الدولة وربما كان هو الكاهن الأَعلى، إذ أن عبادة جراما لم تكن إلا عبادة لشخص

الملك أو الزعيم ، ويظهر من قبور الملوك الضخمة أنهم كانوا يعتبرون أنفسهم حكاماً لا في الحياة الدنيا فحسب بل في الآخرة أيضاً وذلك واضح من أنهم أقاموا مقابرهم على مكان مرتفع من الوادي يمكنهم من الإشراف على رعاياهم الذين أُقيمت جباناتهم في بطن الوادي. ومع أنه من المحتمل أن الملوك بجرما كانوا في مبدأ أمرهم على الأَقل من سلالات البحر المتوسط ، إلا أن وجودهم في فزان قد سهل إتصالهم بالسلالات الزنجية التي أثرت فيهم لدرجة أن الجرامنت في النهاية قد تحولوا إلى شعب سوداني(٤) وكان الملك هو رأْس الحكومة والمشرف على السلطة التنفيذية وكان قائداً للجيش ولا نعرف على وجه التحديد وضعه ككاهن أعلى للدين ، ولو أننا نرى بين القبائل الليبية الأَخرى لا سيما التي كانت تعيش فيها في منطقة طرابلس الغرب ، أن الزعماء كانوا يجمعون فيها بين ارئاستين الدينية والدنيوية(٥).

وتدل التفرقة بين مقابر الملوك وحكام الأَقاليم أن الأَخيرين كانوا دون الأَولين وإن كانوا يلونهم في السلطة.

كان حاكم الاقليم هو نائب الملك وكان عليه أن يدفع للملك ضريبة معينة ، كما كان عليه أن يمده بالمحاربين إذا احتاج الأَمر. وكان لكل حاكم منهم قصر يقيم فيه وجبانة خاصة يدفن فيها بعد موته هو وأفراد أُسرته. وكانت بعض هذه الجبانة من الفخامة والعظمة مثل الجبانة الملكية. ولم يكن هؤلاءِ الامراءُ مجرد حكام للأَقاليم بل كانوا في واقع الأَمر يمتلكون البيوت التجارية التي كانت تسير القوافل عبر الصحراءِ بين بلدان البحر المتوسط وبلدان أفريقيا الوسطى. وقد مكّنتهم هذه التجارة من الإِثراءِ حتى أنهم أقاموا في قلب الصحراءِ قصوراً كانت لا تقل ترفاً عن قصور أغنياء روما في عالم البحر المتوسط. أما عامة الشعب فقد كانوا يمارسون مختلف الأَعمال والمهن والحرف فكان منهم رجال القوافل وكان منهم المزارعون وظل عدد قليل منهم يعيش من صيد الحيوانات البرية(٦). أما العبيد فقد وكلت إليهم أعمال الخدمة في المدن والقصور وأعمال الزراعة في الحقول وتعشير النخيل ورعي الخيول والأَبقار وغيرها

من الخدمات العامة .

إشتهر الجرامنت منذ القدم بروحهم الحربية العالية فلا عجب أن عمل المتطوعون أو المرتزقة منهم في صفوف هانيبال ، كما حاربوا في صفوف مسنيسا ، ويشير الكثير من الكتّاب الكلاسيك إلى أن الجرامنت كانوا يؤيدون ثورات المدن والقبائل الليبية ضد الرومان وأنهم أمدُّوا هذه الحركات بالجيوش المحاربة . وكان الجيش الجرامنتي يتكون بصفة عامة من الفرسان والمشاة وكان الفرسان بدورهم يتكونون من راكبي الخيول وراكبي العربات وأسلحتهم السيوف والرماح . ويظهر أنه كانت هناك فرقة خاصة في الجيش مهمتها طمر الآبار (٧) وسد المسالك على العدو بقطع خطوط تموينه . وليس هناك أدل على قدرة الجيش الجرامنتي من أنه حارب الرومان أكثر من قرن من الزمان حرباً متصلة تمكن فيها أن يدحر الرومان فبعد أن وصل بالبوس إلى أبواب جرمة سنة ١٩ ق.م . تمكن لجرامنت أن ينقلوا ميدان المعركة إلى قلب العدو سنة ٧٠ ميلادية حين وصلت جيوشهم

إلى أسوار لبدة وأبواب أويا(٨).

ومن المؤسف أننا لا نعلم الكثير عن النظام المالي لجرمة ، فمن المعروف أنهم لم يسكوا عملة خاصة بهم إلاَّ أنهم إستعملوا مواد مختلفة للمقايضة كالذهب والفضة والملح والنحاس والكاريونكل (الفيروز الأَخضر)، وفي بعض الأَحيان أصداف البحر علاوة على البضائع الاخرى إلاَّ أن التجارة الواسعة التي كانوا يقومون بها في مساحة تبلغ أربع مرات قدر مساحة عالم البحر المتوسط قد قد إقتضت منهم أن يعملوا نظاماً دقيقاً للمبادلة والمحاسبة. ولا زلنا مع الأَسف نجهل الكيفية التي كانوا يتخذونها لعلاج هذه الأُمور. ومن المحتمل أن يكون الجرامنت قد عرفوا نظام الضرائب ، وكان هناك عدة مصادر لهذه الضرائب أهمها الحيوانات والنخيل وقبل كل شيءٍ الضرائب المفروضة على القوافل. ويظهر أن جزءاً من هذه الضرائب كانت تذهب للحكومة المركزية بجرمة بينما كان حكام الأَقاليم يحتفظون بجزءٍ آخر منها لأَنفسهم.

ولا نعرف على اليقين حدود مملكة جرمة ، فقد كانت الصحراء عائقاً دون تحديد خط الحدود بينها وبين البلدان المجاورة . كانت الحدود من الناحية الشمالية لمملكة جرمة تكاد تكون محدودة تقريباً بالخط الذي يمتد من بونجيم شرقاً إلى غدامس غرباً . وقد أقام الرومان سلسلة من الحصون في هذا الخط إلاَّ أن خط الحدود الشمالية كثيراً ما كان يتحرك قليلاً نحو الشمال أو الجنوب خلال القرن المختلفة طبقاً للأحوال السياسية . أما من الناحية الجنوبية والشرقية والغربية فلم تكن الحدود معلومة وذلك أنه لم تقم في تلك الجهات دول منظمة كالامبراطورية الرومانية ، كما أن إمتداد الصحراء فوق تلك البقاع لم يساعد على تحديد التخوم بين الدول . ولكن المعروف أن القلاع الجرامنتية التي بنيت لتأمين الطرق كانت تمتد جنوب تسيلي وشرقي الكفرة .

* * *

(1) Strabo; XVII, 2.
(2) Mela. I, 8.
(3) Pliny; V, 5.
(4) Ayoub; Excavations in Germa P. 12.
(5) Oric Bates; P. 117.
(6) Ibid; P. 93.
(7) Pliny, V, 5.
(8) Strabo; XX, 45.



نقش من وادي متخندوش (فن عصر الصيادين) يمثل أحد الصيادين
(نقلا عن كتاب جرزيوزي)

الفصل الرابع

الحياة الفكرية

يظهر أن عناية الجرامنت بالتدوين كانت قليلة ، ويبدو أنهم كتجّار أو رجال قوافل لم يعنوا كثيراً بتسجيل تاريخهم. ولم نعثر في الحفريات القليلة التي تمت إلى الآن إلا على القليل النادر من الوثائق المكتوبة وأغلبها قطع من الشقاف. ومن الثابت مما بين أيدينا أن الخط الجرامنتي كان يختلف كلية عن التفيناغ المعروف الآن. وإلى الآن لم يعن أحد العلماء بالبحث وراء فك رموز هذه الكتابة. ولم يصل إلينا أي شيءٍ من الآداب أو القصص الجرامنتية فيما عدا أُسطورة

بحملة مفادها أن أحد ملوك جرمة المخلوعين عن عروشهم قد إستعان بعدد من الكلاب المسحورة لاسترداد عرشه . (١)

أما الفنون فقد خلفت لنا الصحراء سجلاً حافلاً من النقوش والرسوم التي دوّن فيها القدماءُ مشاهد عن حياتهم اليومية فجاءت لوحتهم واقعية مجسمة لتاريخ حياتهم . وليس هناك من شيءٍ أوضح من تاريخ الفن بالصحراء الكبرى ، فمنذ العصور الموغلة القدم ، بل قبل أن تظهر الصحراء ، عندما كانت الوديان التي نراها قاحلة اليوم مليئة بالمياه ، وعندما كانت الجبال الجرداء الداكنة اليوم تكسوها الأعشاب والغابات ، وعندما كانت الجهات الخالية الموحشة الآن مرتعاً لفيل والخرتيت وفرس البحر ، سطر الصيادون نشاطهم اليومي وعمليات الصيد والقنص بكل أمانة ، رسموا أنفسهم وهم يرتدون جلود الحيوانات التي تتدلى ذيولها من خلفهم(٢). نقشوا صور الشباك البدائية التي كانوا ينصبونها ومناظر الصيادين وهم يحملون الصيد . ووصلوا لدرجة الإبداع في تصوير الصيادين وهم يرتدون أقنعة من رؤوس الغزلان ليقتربوا من

الفريسة(٣). وكانت الأَسلحة التي يحملونها بدائية للغاية لا تتعدى العصي وبعض الأَقواس والسهام(٤). وكان فن الرعاة أروع من فن الصيادين إذ تمكن فيه الفنان من التعبير عن شكل الحيوان باستعمال الأَلوان، وحاول فيه الرسام إظهار حركة الحيوان والإنسان. ويظهر من الصور الملونة المرسومة في جبال الأَتاكوس أن هؤلاءِ الرعاة كانوا طوال القامة سمر البشرة يقتنون عدداً كبيراً من الماشية، وأنهم كانوا على درجة أعلا في الحضارة من الصيادين(٥)كما أنهم بلغوا مرتبة رفيعة في فن الرسم. ويمكن أن نعتبر الرسوم الموجودة على جدران الحقاف بوادي تشوينات (الأَتاكوس) شرقي غات بأَنها أرقى مرحلة وصل إليها فن الرسم لدى الرعاة.

ومن المرجح أن الجرامنت كانوا في مرحلة بدائية من الناحية الفنية عند ظهورهم لأَول مرة في فزان، فقد كانت النقوش التي حفروها في بداية حياتهم فجة، رديئة لو قورنت بفنون الرعاة. وهناك ثلاث أماكن متفرقة في فزان تعتبر كاملة لهذا الفن البدائي وهي

النقوش التي تمثل العربة والحصان بوادي زجزا(٦) وقد مثل فيه الرسام العربة بخطوط متقاطعة وكذلك الحيوانات التي تجر العربة . أما الموقع الثاني فهو فوق جبل زنككرا وعلى الحائط الصخري للقمة نقش الجرامنت عدة صور تمثل إحداها جرامنتياً يمتطي حصاناً وقد مثل فيه جسم الشخص بمثلثين متقطعين والأطراف بخطوط مستقيمة والرأس على هيئة رأس السهم(٧) وقد أطلق جرزيوزي على هذا الفن الجيومتري الفن الجرامنتي(٨) . وإنني لأرى أن النقوش التي رُسمت بالخطوط المستقيمة أو الأشكال الهندسية إنما تمثل الفن الجيوتري الجرامنتي في عصره المبكر ، ذلك أن الفنون الجرمنتية قد تطورت في العصور التالية حتى استطاعت أن تصل إلى المرحلة التي وصل إليها الرعاة من قبلهم فتمكنوا من أن يعبروا عن التجسيم باستعمال الألوان ثم بدأوا يعبرون عن الحركة ، فترى في إحدى لوحات الرسوم الملونة بتشوينات منظراً يمثل عربة يجرها زوج من الخيول وهي تنطلق هاربة من صاحبها الذي يحاول اللحاق بها وبيده السوط ، وتقف

على العربة فتاة ربما كانت رفيقة السائق وهي تحاول بكل قوة كبح جماح الجواد الهائج(٩) ، فإذا قارنا هذه اللوحة بلوحة نقش وادي زجزا أو نقش جبل بن غنيمة(١٠) التي تمثل العربة والحصان لعلمنا أن الفنان الذي رسم اللوحة الأُولى تمكن من التعبير عن الحركة والحيوية التي تنقص اللوحة الثانية أو الثالثة. وبلغ تصوير الأَشخاص بالنقش حد الروعة في وجه الجرامنتي الموجود على جبل زنككرا ففيه تمثيل دقيق لملامح الوجه قبل أن يتوفر في النقوش القديمة(١١). وإذا كانت مظاهر الحركة والحيوية من مميزات فنون عصر النهضة فإنه من السهل عن طريق عمل المقارنات ودراسة الأَشكال أن نتعرف على اللوحات التي رسمت خلال تلك الفترة فمثلاً يمكن أن نقول بأَن اللوحة رقم ١٤٠ الموجودة في كتاب Tedrart Acacus للدكتور موري والتي تمثل وداناً منطلقاً وخلفه كلاب الصيد(١٢) ترجع إلى فترة عصر النهضة ، كما ترجع إلى نفس الزمن اللوحة رقم ١٣٧ بنفس الكتاب والتي تمثل العربة التي تجرها الجياد

والأَشخاص من الرجال المسلحين بالقسي والنبال والنساء بملابسهن الكاملة. وهذه اللوحة موجودة في وادي كسى Kessi بتسيلي(١٣) وقد مثل الفنان حركة هذه المجموعة من الأَشخاص والحيوانات بواقعية منقطعة النظير، ولعل أروع الأَمثلة للحركة وهي لوحة أين أيدي رقم ١ التي تمثل نعامة تعدو بأَقصي قوتها ويخيل للرائي أن الطير يكاد يقفز من الصخر(١٤)، أما لوحة ويبن مهوجج رقم ٣ فتمثل غزالاً منطلقاً وقد مثلت أرجل الحربوان كأَنها تطير في الهواء(١٥). كل هذه اللوحات مثال حي إلى أن عصر النهضة الجرامنتية قد أنتج فناً رفيعاً بلغ أقصي حدود الرقي والإتقان.

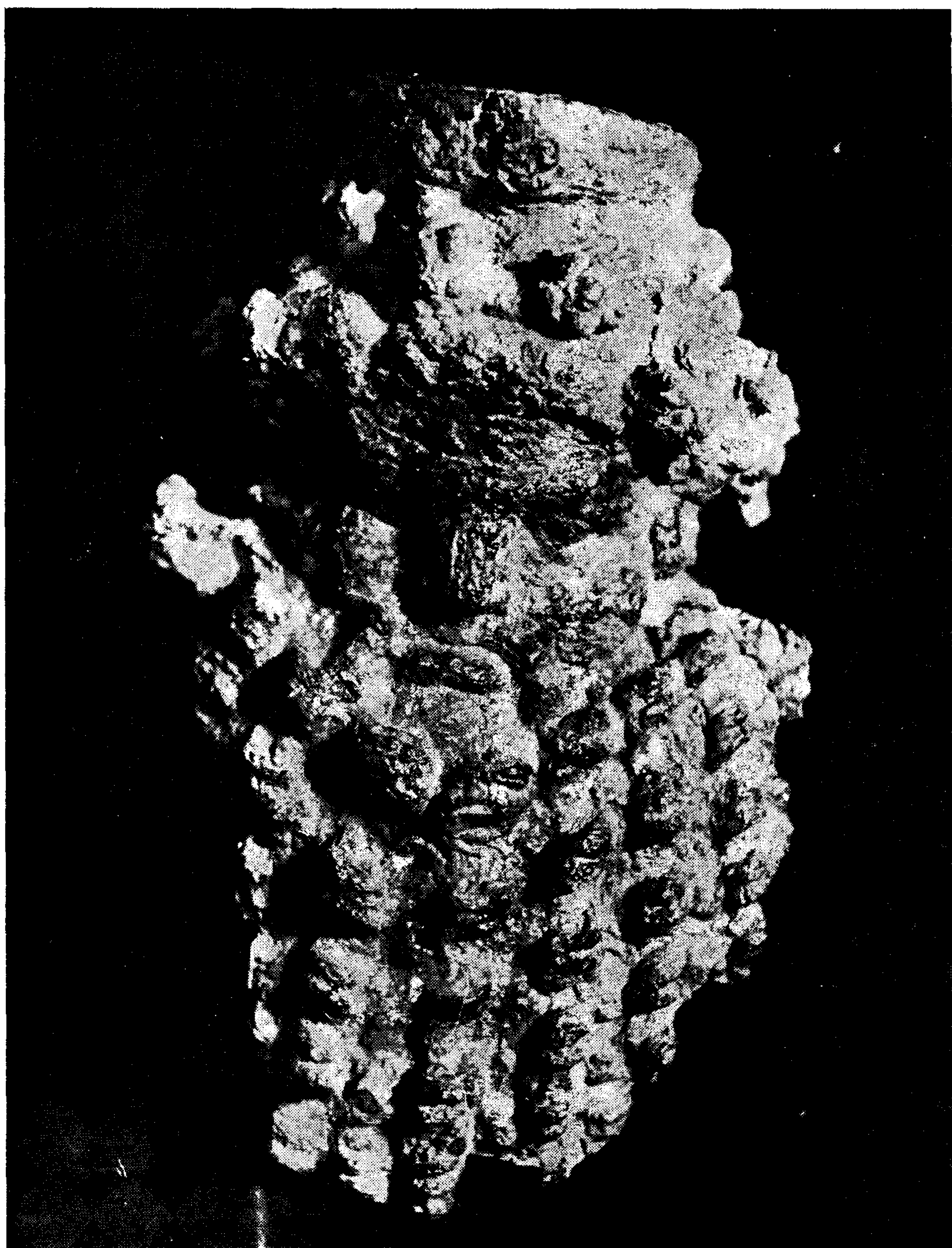
ولم يعثر بجرمة القديمة سوى على عدد قليل من أجزاءِ التماثيل وجميع الأَجزاءِ التي وجدت أقل من الحجم الطبيعي للشخصيات التي تمثلها، ولا يمكن الجزم ما إذا كانت هذه الأَجزاء قد نحتت في جرمة أم أنها استوردت من أمكنة أُخرى. ولكن من الجائز أن تكون طبيعة الجرامنت التجارية لم تشجعهم على إقتناءِ التماثيل

الجميلة إذ أن إهتمام التاجر ينصب غالباً على إقتناء الأَشياء ذات القيمة المادية الغالية لا القطع الفنية التي لا يجني من ورائها إلاَّ الربح الأَدبي .

ومن أمثلة القطع المنحوتة قطعتان من الحجر الرملي النوبي تمثل إحداهما صدر شخص يلبس إزاراً ، والقطعة الأُخرى تمثل جزءاً من الكتف واليد لنفس التمثال ، وقد عثر عليها في حفريات مصلحة الآثار بجرمة . ثم جزء يمثل رأْس تمثال من البرونز لشخصية هامة ذات طلعة مهيبة ، فملامح الوجه دقيقة ونبيلة ، واللحية (ربما كانت مستعارة) مرسلة على الصدر وذات تجاعيد ، والتاج أشبه ما يكون بتاج سيرابيس أو بوسيدون إله البحر . ويظهر بأَن هذا التمثال كان يمثل شخصية أكبر من زعيم أو ملك . ومن المحتمل أنه كان لجراما الاله ، ابن أبوللو وجد الجرامنت (١٦) .

تمثل المساكن التي وجدت آثار بقاياها على منحدرات زنككرا منازل الجرامنت في الزمن السابق للعصر المسيحي قبل بناء جرمة القديمة ، كما أن المباني التي عثر عليها

بالطبقة الثالثة بموقع جرمة تمثل المرحلة السابقة لوصول التأثيرات الاغريقية والقرطاجية والرومانية وتعتبر آثار المنزل المبني بقوالب اللبن والذي انطبعت صورته على طين التربة بالطبقة الثالثة خير مثال لأقدم المساكن بجرمة القديمة. ويرجع فضل العثور على المستقر السالف الذكر للسير ريتشمند الأستاذ بجامعة أكسفورد وراعي بعثة الأكاديمية الملكية البريطانية. أما المباني التي وجدت بالطبقة الثانية فهي تمثل طراز المساكن التي بديء بإنشائها في أواخر القرن الأول بعد الميلاد أو أوائل القرن الثاني الميلادي ويعتبر البنائان H, A خير مثالين لطراز عصر النهضة، أما البناءُ الأول فعبارة عن مسكن مربع الشكل طول ضلعه حوالي ثلاثة عشر متراً وهو مقام على أساس من الأحجار المتماسكة بملاط يعلوها صف من كتل الأحجار الكبيرة المنتظمة المستطيلة، وهذا الصف ناتيء قليلاً عن الصفوف التي تعلوه والتي تتكون من صفين متوازيين من كتل لأحجار المنتظمة، ويحصر هذان الصفان بينهما فراغ مليء بالتراب والأحجار والمونة وكان



رأس تمثال من البرونز (جراما ؟)

المبني مقسماً من الداخل إلى أفنية وحجرات بعضها مسقوف وبعضها غير مسقوف ، وقد عثر على أساسات للأعمدة التي كانت ترفع السقف. كما عثر على أجزاء من أعمدة منها بعض التيجان. وتظهر بوضوح على الجدران آثار الطلاء بالحصي وكذلك عثر على الأرضية ببعض قطع الحصى الملون. وهناك ما يشير إلى أن هذا المبنى قد عملت له إضافات في عصور تالية وربما كانت له أدوار علوية أيضاً ، وبالمبنى ما يشير إلى أنه قد دمر أو شب فيه حريق ثم أُعيد بناؤه مرة ثانية ، وفيه أيضاً من الأدلة ما يشير الى ان المدخل قد ضيق في عصر تالي وان الحوائط الفاصلة بين الحجرات قد تناولها التحوير والتغيير في زمن لاحق لبنائه . والمرجح أن هذ المبني كان مسكناً لاحدى الشخصيات الهامة بجرمة ومن المحتمل أنه كانت تمارس فيه بعض الصناعات الدقيقة إذ عثر فيه على قطعة ذهب خام (مطروق غير مصنوع) كما عثر به أيضاً على قطع من الفيروز الخام وقطع من الأحجار الثمينة الأخرى. أما المبنى الآخر. «H» فلم يتبق منه سوى الأساسات ويظهر أنه بني

بكيفية المبنى « A » ويمكن الصعود إلى أرضية المبني « H » عن طريق ثلاث صفوف من الدرج ، وقد عثر بالمبنى وحوله على قطع كثيرة من تيجان الأَعمدة والتيجان الدورية والأَبونية كما عثر على عدد كبير من الأَفاريز وأجزاء من السقف مما يشير إلى أن سقف هذا المبنى كان شبيهاً بسقف المباني الأَغريقية ، وربما كان هذا المبني معبداً صغيراً أو جزءاً من معبد كبير (١٧) . ومن المخلفات التي عثر عليها بالحفائر يمكن أن تقول بأَنه كان بالمدينة علاوة على هذه المباني وغيرها نظام دقيق للمجاري ، كما كان بها حمامات وأسواق وشوارع وربما كان بها ملاعب ومسارح لا زالت آثارها تحت الثرى.

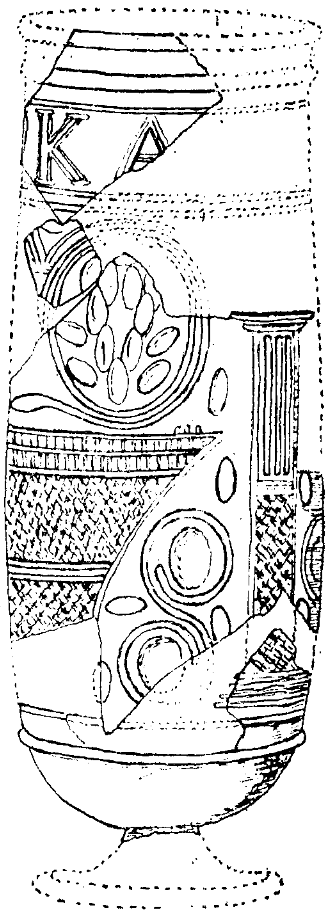
وكانت عناية الجرامنت بالقبور أقل من عنايتهم بالمساكن ويظهر أنه كان لطباعهم كتجار أثر كبير في ذلك. ظل الجرامنت حتى بعد قيام جرمة القديمة يبنون قبورهم على نفس الطراز الذي ألفوه منذ القدم وهي القبور المستديرة الصغيرة وكان الميت فيها يسجى على على هيئة الجنين في بطن أُمه . ورغماً من وصول التأْثيرات

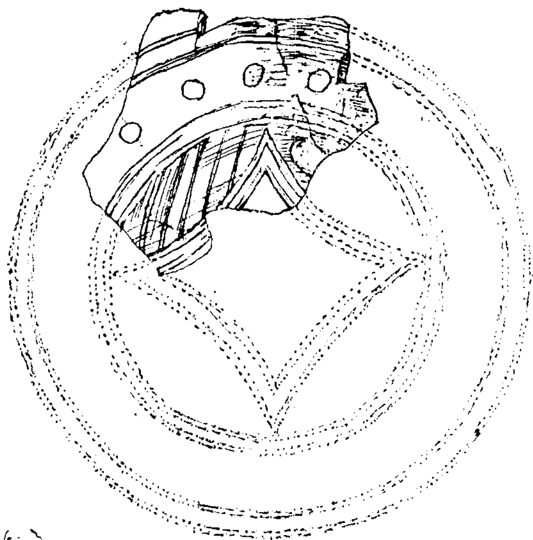
القرطاجية عن طريق نوميديا فإن الجرامنت لم يستعملوا
الموزاليوم مثلا كمدفن ، بل استعملوه كشاهد قبر أو
مكان تكرس فيه خدمات معينة لموتى الجبانة . وتعتبر
الجبانة الملكية بجرمة أقدم الأمثلة الموجودة للقبور الفاخرة
بفزان . ففي هذه الجبانة بنيت القبور المربعة بدرجتين
أو مصطبتين تعلو إحداهما الأخرى وحفرت غرفة الدفن
في عمق مناسب . وقد قلد الأمراء وحكام الأقاليم الأسرة
المالكة في إتخاذ هذا الطراز من المدافن فنجد مقابر
تاجلت (١٨) والرجية (١٩) والتناحمة (٢٠) بوادي الأجال
من هذا الطراز . وإلى جوار هذا النوع المميز من القبور
نجد قبوراً من الطراز الهرمي مبنية بالطين وكان يظن
بأنه ليس هناك بفزان سوى جبانة واحدة من هذا الطراز
وهي التي عثرت عليها البعثة الايطالية التابعة للجمعية
الجغرافية الملكية في الخرائق (ثلاثين كيلومتراً شرقي
جرمة) (٢١) . ولكن تبيّن أخيراً وجود عدة جبانات في
نواحي مختلفة من فزان من هذا الطراز ، وتعتبر جبانة
الحطية (خمسة وثلاثون كيلومتراً غربي جرمة) أكبر

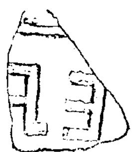
هذه الجبانات. والبناء عبارة عن هرم مبني بقوالب اللبن ويرتفع عن الأَرض ما بين المترين والخمسة أمتار وغرفة الدفن تحت الهرم، ولا يعرف إلى الآن تاريخ هذه الأَهرام أو لمن كانت وذلك أن جبانة الخرائق التي عملت فيها البعثة الايطالية وجدت مخربة بعد أن أتى عليها اللصوص. أما جبانة الحطية فلم تجر بها حفريات للآن.

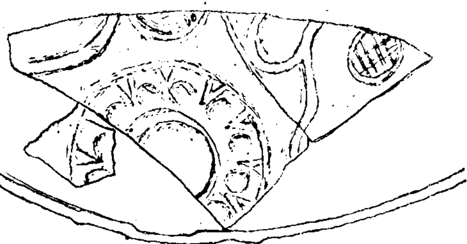
وقد حرص الجرامنت على وضع شواهد ذات شكل معين على القبور، وكانت هذه الشواهد توضع للناحية الشرقية المقابلة لمشرق الشمس أو للناحية الغربية المقابلة لمغربها. وكانت الشواهد إما على شكل المسلة بارتفاع لا يزيد عن المترين وكانت تصنع من الحجر المحلي (الرملي النوبي) أو على شكل قرنين أو على شكل الكف، أما الشواهد التي على شكل المسلة فقد عثر على أمثلة متشابهة في قبور القرطاجيين في تونس أما الشواهد التي على شكل القرنين فربما كانت تمثل الهلال، وهي إحدى رموز تانيت، أما كف اليد فهو أحد رموز تانيت المقدسة

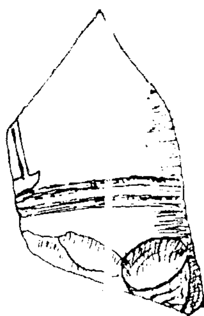
بعض القطع الزجاجية التي عثر عليها
بالجبانة التذكارية

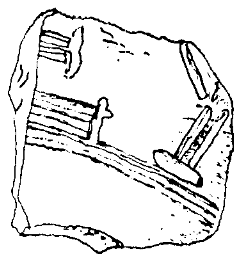




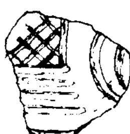


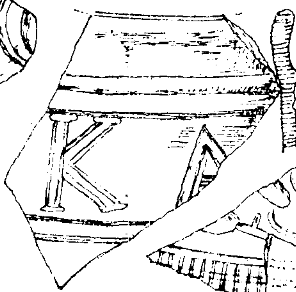


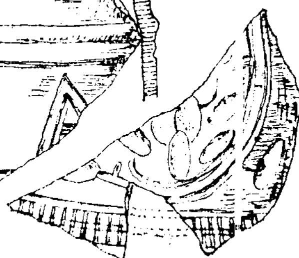


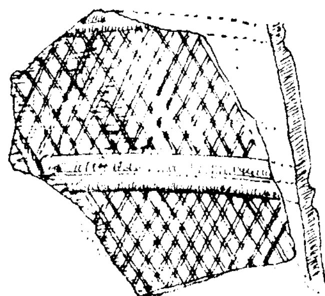












كذلك. كما عثر داخل القبر على عدد كبير من الأَواني وأدوات الزينة وغيرها مما يدلُّ على أن الجرامنت كانت لهم نوع من العقيدة في الخلود بعد الموت ، وأن تصورهم للحياة الأُخرى أنها إستمرار لحياتهم اليومية ، ولقد بني الملوك قبورهم على مكان مرتفع من الوادي ليشرفوا على رعاياهم الذين دفنوا في بطن الوادي ، كما أشرفوا عليهم في الحياة الدنيا. إلا أننا لا نعرف شيئاً عن المثولوجية الجرامنتية وهل كان أهل فزان يتصورون أن حياة الميت تقتصر على داخـــل القبر أم أنهم كالمصريين القدماء تصوروا وجود عالم سفلي تحت الأَرض أو في بقعة أُخرى من الكون يبعث فيه الموتى. هناك نقطة هامة هو أن عدم عثورنا على أية أدوات حربية في قبور الجرامنت ربما كان دليلاً على أنهم تصوروا الآخرة عالم سلام لا حرب فيها ، أو أن الآلهة تسيطر عليه بما لا يدع لقوى الشر مجالاً للنشاط فيها.

وكما كانت فزان معبراً للتجارة والشعوب بين شرق أفريقيا وغربها وبين شمالها وجنوبها فانها كانت كذلك

معبراً للثقافات الدينية بين البلاد الواقعة حولها. فمن الشرق جاءت العبادة الفرعونية وأهمها عبادة الإلٰه آمون. فهذا الاله أصله الأول ليبي وربما وصل إلى مصر مع المهاجرين الليبيين الأُوَّل الذين نزحوا إلى وادي النيل في عصر ما قبل الاسرات . ويبدو بأنه اتحد بطريقة ما مع الاله من أحد آلهة مصر لعليا. وصار الاله آمون أعظم الآلهة المصرية في عهد الامبراطورية وتوطد مركزه بعد إنتصاره على الهرطقة الأتونية. وأُقيم له معبد كبير في واحة سيوة. ومن هذه الواحة انتشرت العقيدة الأمونية بالصحراء ووصلت تأثيراتها إلى الاغريق في برقة. وباستيلاء الفرس بقيادة ملكهم قمبيز على معبد أمون الكبير بالكرنك أصبح لمعبد أمون بسيوه مركز مرموق بين مراكز عبادة هذا الاله، وقد اكتسب هذا المعبد مكانة خاصة في القرن الخامس قبل الميلاد في مدن الأغريق بما قدمه لهم من النبوءات عن انتصارهم على أعدائهم الفرس، في وقت قطع فيه الأغريق أي رجاء لهم في النصر، وسمى الأغريق هذا المعبد بمعبد «زيوس أمون». ولم تنتشر عبادة الاله

أمون بهيئته المصرية التي كانت تعتبر إلهاً للاخصاب(٢٢) . بل اكتسب خصائص جديدة فصار عالماً بالغيب (٢٣) يستشيره التجّار ورجال القوافل عما يعن لهم من الأُمور ، وصار هادير للضالين بالصحراءِ يرشدهم إلى ينابيع المياه والآبار إذا ما هدّدهم العطش والقيظ ، وأصبح حامياً لسكان الواحات الضعاف من بطش الأَمبراطوريات التي تضخَّمت وأصبحت تهدد المجاميع الصغيرة من الامارات والممالك بالصحراءِ الكبرى. فكان الاله أمون بما له من قوة سحرية يشير الزوابع والرياح ويهلك الجيوش الجرارة كما فعل بجيش العاهــل الفارسي قمبيز الذي أُرسل للاستيلاءِ على سيوه فهلك في الطريق. يقول هيرودوت أن النسمونيين ، وهم جيران الجرامنت وبنو عمومتهم ، كانوا يعظمون الاله أمون فلا يستبعد أن تكون عبادة هذا الاله قد انتقلت إلى الجرامنت من النسمونيين ما لم يكن الجرامنت أنفسهم من عبّاده الأُوَّل وأن التحليل اللغوي للاسم Garaman يدل على أن جزءاً من ذلك الاسم يحوي إسم الاله أمان أو أمون.

أما اغريق برقة فقد كان شأنهم شأن اغريق العالم يشعرون بأنهم لا ٍالوا في مرحلة الطفولة إذا قورنت أفكارهم الدينية بالملوجيا الفرعونية القديمة العريقة ولذا فإن المدن الاغريقية ببرقة لم تفعل أكثر من أنها أعطت للالهة الفرعونية أسماء يونانية ، كما أن تماثيل هذه الالهة اكتسبت المسح، الفنية الأَغريقية . أما القرطاجيين فقد كانوا كالاغريق، ليسوا عريقين في العلوم الر وحية منعهم إتجاههم المادي من الاهتمام بالآخرة ، وكان إلههم القديم بعل أو بعل هامان Paal Haman فينيقي الأَصل ، إلاَّ أنه اكتسب خصائص الاله المصري أمون إما لأَن المستعمرة الفينيقية في قرطاج كان يحيط بها الليبيون من كل جانب أو لفقر الكهنوت القرطاجي واحتياجه إلى ما يدعم معتقداته . فصور هامان على شكل أمون زيوس الشيخ الوقور ذي اللحية ، يعلو رأسه قرنا الكبش (٢٤) .

جاءت التأثيرات الدينية الأَجنبية المعروفة إلى ليبيا من هذه النواحي الثلاث. من الشرق جاء الاله أمون المصري الذي استقر في سبوه ليمتزج باله ليبي صغير كان له نفس

الاسم. ومن قرطاج جاء إله فينيقي صار في حقيقته إلهاً مصرياً متلبياً. ومن المدن الأغريقبة ببرقة ظهرت هذه الآلهة في تماثيل ذات سحنة أفريقية. أما في منطقة طرابلس الغرب فقد تطور الاله أمون المصري في صورة الاله جرزيل بعد أن اكتسب خصائص الآلهة ايزيس الأم فصارت تمثل كبقرة جرزة، كما أنه اكتسب مميزات الالهة الشمسية فصار يرسم كقرص شمس بين قرني البقرة(٥). وأصبح هذا الاله معبود الرعاة يتقربون إليه بمواشيهم ويستشفون ببركته من أمراضهم(٢٦) ومع نمو الروح الحزبية لقبائل جبال ملاته ونفوسه وغريبان صار كهنته مثل أرنا Ierna قواداً للجيش(٢٧). وعلاوة على الالهة المصرية التي كانت تمثل الاخصاب والأرض كانت هناك آلهة أُخرى مجهولة الأَصل، ولو أنها كانت في أغلب الظن من المعبودات التي وفدت مع قبائل البحر المتوسط، إذ أنها بخصائصها البحرية لا يمكن أن تكون قد جاءت من وادي النيل أو الصحراء. وكانت الشواطيء الغربية لاقليم طرابلس الغرب والشواطيء الجنوبية الشرقية لتونس الموطن الأَول

الذي عبدت فيه هذه الآلهة بشمال أفريقيا. فإلى هذه المنطقة التي سماها الاغريق خليج تريبتون ترجع أُصول كثير من الآلهة البحرية الأَغريقية مثل بوسيدون(٢٨) الذي كان إله البحار. وتقول أقدم الروايات الأَغريقية أن هذا الاله كان بربري الأَصل وأن موطنه كان الجهة المعروفة اليوم بخليج قابس. وكان هناك إله آخر مع بوسيدون يعيش في نفس المنطقة ولعله كان نفس الاله ولكن تحت اسم آخر، وهو تريبتون الذي ساعد ركَّاب السفينة أرجو في الخروج من السواحل الضحلة التي رست فيها سفينتهم وكان لتريبتون أُخت هي تريبتونا وربما كانت تريبتونا اسماً آخر لتريبتون الذي وصف بأَنه كان خنثى. ويقول هيرودوت إنه كانت توجد هناك آلهة أُنثى بهذه المنطقة وكعادة اليونانيين أعطاها المؤرخ الأَغريقي إسماً يونانياً وهو أثينا. ويقول هيرودوت إن القبائل التي كانت تعيش هناك كانت تقيم إحتفالاً سنوياً لأَثينا هذه، تركب فيه أجمل الفتيات عربة حربية بعد أن تلبس ملابس القتال وتقوم بدورة حول

مكان الاحتفال. ثم تنقسم الفتيات المحتفلات بالعيد إلى قسمين ويقوم كل قسم برجم الآخر بالأَحجار(٢٩). وتقول بعض الأَساطير اليونانية أن أثينا ليست إبنة لزيوس وإنما إلتجأَت إليه شاكية أبيها بوسيدون بعد أن تشاجرت معه فتبنَّاها زيوس أبو الالهة ، وصارت أثينا الجربية الأَصل (نسبة لجزيرة جربا) حامية للمدينة اليونانية التي حملت إسمها أو التي نسبت هي إليها.

وفي هذه المنطقة ظهرت آلهة ثانوية أُخرى ، ربما كانوا زعماء وأبطال اكتسبوا شهرة خاصة بين القبائل الليبية ومنهم الاله جراما جد الجرامنت الأَول وابن الاله أبوللو من الأَميرة أكاكاليس Akakalis إبنة الملك مينوس ملك كريت الأَسطوري. وتحكي الأَساطير الأَغريقية أن الأَميرة قد أحبت الاله أبوللو وحملت منه واضطر والدها دفعاً للعار أن يرسلها إلى شواطيء تريبتون حيث أنجبت إبنها Garama . وبعد أن شب هذا الولد أحب بدوره الخنثي تريبتونيا وأنجب منها ناسمون Nasamon جد النسمونيين (٣٠) ويظهر أن عبادة جرما قد إنتقلت مع الجرامنت

أثناء هجرتهم من سواحل طرابلس الغرب وخليج قابس إلى فزان ، كذلك إنتقلت عبادة نسمون Nasamon مع النسمونيين أثناء هجرتهم شرقاً إلى خليج سرت . ويشير بعض الكتّاب الكلاسيك إلى أن عبادة الأَجداد كانت شائعة بين الليبيين وأنهم كانوا يستطلعون الغيب عن طريق الاتصال بأَرواح الأَجداد . ويشرح المؤرخ بومبيونيس ملا Pomponius Mela هذا الأَمر بقوله إن المريد كان يغتسل ويتطهر ثم يرقد على قبر جد معين من الأَجداد. وأثناء نومه تتجلَّى له في الرؤيا أحداث المستقبل فيعرف منها ما يعني له من المواضيع التي أزمع الاقدام عليها (٣١) . ولعل السبب الذي من أجله قد بنيت القبور ذات المصطبتين المربعتين بهذه الكيفية هو تسهيل عملية النوم لمن رغب الاضطجاع على القبر لقراءة المستقبل من ملوك جرمة القديمة ، وذلك باتصاله بأَجداده من سكان تلك القبور .

كانت هذه الآلهة الأَجنبية والمحلية التي عرفت بالبلاد ولكن كان هناك آلهة عليا بلغت أسمى المراتب في قلوب الناس ، وكانت هذه الآلهة ليبية الأَصل ،

وظلت طوال حياتها مخلصة للوطن الأُم الذي أنجبها ، ظلت آلهة صحراوية لم تتـأَثر كثيراً باللاهوت المصري أو الميثولوجيا الأَغريقية أو بالأَقطار الفينيقية . كانت هذه الآلهة هي تانيت ، سيدة الصحراءِ ، هادية القوافل بالنهار والليل ، مفجرة عيون الماءِ . فكثرة الماء بالآبار رمز الحياة والخلود ، وجد فيها القرطاجيون صورة من الآلهة أشرات Asherat الفينيقيـــة فاتخذوها زوجـــة لآلههم هامان(٣٢) ولكن هذه الآلهة ظلت مع ذلك ليبية صميمة لم تتمكَّن الأَساطير الفينيقية من أن تغيِّر صورتها فظلت الزوجة الليبية لقرينها الفينيقي . ولقد إِقترن إِسم تانيت باسم الآلهة نيت المصرية التي كانت تعبد في مدينة سايس (صاالحجر) الموجودة بالدلتا على فرع النيل المسمى بفرع رشيد . وكان إِسم المدينة حت ـ نيت أي مسكن الآلهة نسيت وكانت تلقب هناك بأُم الشمس وبالبقرة التي تحمل الشمس بين قرنيها . وقد وجدت صورة تمثل البقرة بهذا الوصف في ماياديب بجبال طرابلس الغرب ، وكان شعار الآلهة نيت رمحان متقاطعان ، وهو رمز حربي

ربما يفسر لنا السر الذي جعل القبائل الليبية المحاربة تحت لواء إرنا lerna يحملون رمزاً يمثل البقرة التي تحمل قرص الشمس بين قرنيها كعلامة حربية تجلب النصر ، ولعل هذا هو السبب الذي كان من أجله تلبس الفتاة في حفل الآلهة أثينا التي هي تانيت ملابس المحاربات . ولعل هذا هو الذي وصم ذلك الاحتفال أيضاً بطابع العنف في تمثيل حركات القتال بين الفتيات في إحتفالهن بعيد أمهم تانيت الأنثى المحاربة(٣٣) .

من المعروف أن جالية كبيرة نشيطة من اليهود إستقرت بالمدن الأغريقية ببرقة ، وقد كان تقارب العادات بين البربر واليهود سبباً في علاقات الود والصداقة التي بدأت بين المجموعتين والتي أدت إلى أن يتزاوج اليهود والبربر . وقد أعان المتهودون من البربر إخوانهم اليهود خلال الثورة الكبرى التي اندلع لهيبها ضد الرومان ببرقة سنة ١١٥ م(٣٤) . أما في طرابلس الغرب فقد كان هناك جاليات يهودية منذ وصول الفينيقيين ، واستقرت جالية كبيرة منهم في جاد وبجبل نفوسة ، ونجحت هذه

الجالية في تهويد بعض البربر الذين كانوا يسكنون في جوارهم. وكانت الجالية اليهودية بجادو من التجّار النشيطين، وهناك في القصص الشعبية بين بعض قبائل الشاطيء ما يشير إلى وجود علاقة بين بعض القبائل التي تقطن فزان اليوم وبين يهود جادو. ولا يستبعد أن تكون البيوت التجارية من يهود جادو هي التي كانت تمول قبائل الجمالة لا سيما قبيلة مزاته التي كانت تسكن جبل نفوسة مما عاونها على إقتحام الصحراء أو إنتزاع السيادة على طرق القوافل من الجرامنت.

ومع أن المسيحية جاءت إلى شمال أفريقيا منذ وقت مبكر من بداية التقويم المسيحي إلاَّ أن إنتشارها بالصحراء كان محدوداً جداً. أما على الساحل فكان أكثر الذين إعتنقوا المسيحية من سكان المدن أي من أبناءِ الأَغريق والفينيقيين والرومان، بينما ظل أغلب البربر في ليبيا على وثنيتهم. وكان الأَمر مختلفاً بالنسبة لبلاد شمال أفريقيا الأُخرى، ففي الجزائر وتونس والمغرب ولا سيما الأَجزاء الجبلية المتاخمة للشريط الساحلي، إعتنق أكثر

السكان المسيحية على المذهب الدوناتي وهو المذهب الجديد الذي تمخَّض عن النزاع الفلسفي بين رجال الدين حول موقف الكنيسة من الذين سلموا ما بيدهم من الكتب الدينية والعلامات المقدسة للوثنيين خلال فترة الاضطهاد الديني. فقد وجدت فكرة التسامح والعفو التي نادى بها رجال الكنيسة في روما معارضة شديدة بين المسيحيين من بربر شمال أفريقيا وتمخَّضت المعارضة عن قيام مذهب جديد بزعامة أحد رجال الدين المدعو دوناتس. ولقد أثبتت الأَيام أن البربر قد وجدوا في هذا المذهب وسيلة يعبِّرون بها عن إحتجاجهم على الحكم الروماني. فعلى الرغم من أن حق المواطنة الرومانية منح لكل سكان الأَمبراطورية إلا أن هذا الأمر ظل نظرياً، فقد كانت معاملة الأَمبراطورية للمستعمرين الرومان والاغريق وأبنائهم وهم الذين سكنوا المدن الساحلية بشمال أفريقيا مختلفة تماماً عن معاملتهم للبربر، وظل الأَخيرون ومعهم العناصر الشرقية الأُخرى كأَبناءِ القرطاجيين، واليهود في مرتبة دون أبناءِ الرومان بكثير. وبدأ الاحتجاج يأْخذ شكلاً

عنيفاً بعد أن بادرت الحكومة بنفي زعيم الحركة دوناتس إلى أوربا حيث مات في بلاد الغال (فرنسا)، فقالت جماعات من الرعاع في جميع جهات شمال أفريقيا، ومعهم قبائل البربر بمهاجمة مزارع ومساكن الأغنياء وعرفت هذه العصابات باسم الدوارين Circumcelliones وشجعت هذه الحركة زعماء البربر على إعلان الثورة المسلّحة على الدولة الرومانية وبدأت حركات البربر بتمرد الزعيم الجزائري فيرموس Firmus في أواخر القرن الثالث الميلادي ولم تنجح حركته لخروج بعض أفراد أُسرته عليه، ثم أعقبه تمرد أخيه المدعو جيلدو Gildo (٣٥) وقد فشل هذا الزعيم بدوره أيضاً لتمرد بعض أفراد أُسرته عليه. وفي القرن الخامس الميلادي عبر الوندال وهم قبائل أندو أوربية جاءوا من جنوب أسبانيا عبر جبل طارق واحتلوا شمال أفريقيا. وجاء الغزاة بمذهب مسيحي جديد وهو المذهب الأريوسي وهو يختلف عن الدوناتية كما يختلف عن الكاثوليكية. ولم يستمر حكم الوندال طويلاً إذ

إسترد جستنيان شمال أفريقيا وضمها للأمبراطورية الرومانية الشرقية التي كانت عاصمتها في القسطنطينية . وحاول جستنيان إدخال مذهب الكنيسة الشرقية بشمال أفريقيا واستعمل لذلك الاقناع والقوة ، ومع كل ذلك فقد ظلت المسيحية محدودة الانتشار بين قبائل البربر الذين ظل أغلبهم على وثنيتهم حتي بعد الفتح الإسلامي بمدة طويلة . أما في الصحراء الكبرى فقد كان انتشار المسيحية محدوداً جداً وهناك اشارة غير واضحة إلى أن الجرامنت كانوا قد استجابوا لنداء الأمبراطور جستنيان واعتنقوا المسيحية (٣٦) إلاَّ أنه لم يقم إلى الآن أي دليل مادي يؤكد هذا الكلام ، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تتخذ من العلامات الزخرفية الشبيهة بالصليب دلالة على تحول قبائل الصحراء الكبرى إلى المسيحية ، إذ أن تلك العلامات الشبيهة بالصليب كانت معروفة منذ عصور أقدم من المسيح (٣٧) وتدل سرعة إختفاء المسيحية من الصحراء بعد الغزو الإسلامي أنها لم تكن عميقة الجذور في نفوس سكان الصحراء

الكبرى ولم تبلغ حرارة الايمان فيهم ما بلغته في نفوس قبط مصر أو مسيحيي النوبة الذين حافظوا على عقيدتهم حتى القرن الخامس عشر أو السادس عشر الميلادي أي حتى بعد مدة طويلة من وصول المسلمين إلى شمال السودان.

* * *

(1) Ptolomy IV 7, 8.
(2) Grasiosi; Rock arts in the Lyb an Sahara PL 34.
(3) Ibid.
(4) Ibid, PL 8.
(5) Mori, PL 86.
(6) Grasiosi; L'arte supestre delln Libia P. 94 ff.
(7) Ayoub, Zonkekra rock arts (nct published)
(9) Mori; P 209 PL 139.
(10) Grasiosi; L'arte rupestrc della Libia P. 96
(11) Ayoub, Ibid.
(12) Mori; P. 209 PL 140.
(13) Mori; P. 208 PL 137.
(14) Mori; P. 196 PL 776.
(15) Mori; P. 169 PL 78.
(16) Ayoub; Excavations in Germa P. 22 ff.
(17) Ibid.
(18) Caputo; P. 387 ff.
(19) Ibid; P. 377 ff.
(20) Ibid; P. 376 ff.
(21) Ibid; P. 363 ff.
(22) Oric Bates; P. 190 ff.
(23) Ibid.
(24) Ibid; P. 199.
(25) Ibid PL 198.
(26) البكري : ص ١٠ وما بعدها
(27) Oric Bates, P. 187.
(28) Herodotus II, 80.
(29) Ibid IV, 188.
(30) Apollonius of Rhodes IV

(31) Mela; I, 8.
(32) Warmington; P. 156.
(33) Oric Bates, P. 203 ff.
(34) Ibid; P. 233.
(35) Cloudian; Elegy of Stilicho.
(36) Dichl; P. 327.
(37) Oric Bates; P. 209.

الفصل الخامس

الحياة الاقتصاديّة

تختلف طبيعة التضاريس في أفريقيا عن غيرها من القارات ، فالجهات الشمالية منها تقع على ساحل البحر المتوسط بينما يمرّ خط الاستواءِ بوسط القارة تقريباً ، ويفصل منطقة السافانا الواقعة إلى الشمال من المنطقة الاستوائية عن المنطقة الشمالية المتاخمة للبحر المتوسط منطقة صحراوية كبير تمتد من شرق القارة لغربها . وتتكوَّن هذه الصحراء من بحار من الرمال ومجاميع من الهضاب وهي قليلة السكان وقليلة المياه وعديمة الأمطار تقريباً . وقد فصلت هذه الصحراء بين مناطق الحضارات القديمة التي قامت على شواطيءِ البحر المتوسط ومناطق

المواد الخام في منطقة السافانا الأفريقية. وعمل الانسان منذ عصور قديمة على إجتياز هذه العقبة عن طريق السفر بالقوافل. ومنذ الندم لاحظ الانسان أن أنسب مكان لعبور الصحراء كان عن طريق الدروب التي تبدأ من الموانيء الليبية الواقعة على سواحل سرت الكبرى والتي تخترق فزان إلى انيجر وتشاد وذلك لعدة أسباب منها أن الرصيف البحري كان يدخل لأقصي مداه لداخل القارة من هذه الناحية مما يقصر المسافة بين البلاد الواقعة على شاطيء البحر والبلاد الواقعة جنوب الصحراء الكبرى. وكذلك كثرة الواحات والآبار وقرب المسافة بين كل منها والآخر على طول الطريق إلى وسط أفريقيا ومنها إمتداد العروق الصخرية والأرض الصلدة من الساحل إلى جرمة بقلب فزان ومنها عبر هضاب تسيلي والهجار وتبستي وأندي ودارفور واير وغيرهـــا من الهضاب والأراضي الصخرية التي كانت تجعل حركات دواب القوافل سهلة وذلك قبل ظهور الجمال.

ولعل أهم الدروب الصحراوية التي كانت تسير فيها

قوافل الجرامنت بين جرمة وبلاد السافانا الأَفريقيه هو ذلك الطريق الذي كان يمتد من جرمة إلى تساوا ، حيث توجد أطلال قلعة ومقبرة جرامنتية ، ثم إلى مدينة شربة ثم تخترق المنطقة التي تعرف اليوم بصحراء مرزق (ولم تكن مرود الرمال قد زحفت عليها بعد بل كانت منطقة جبلية) إلى جبال تبستي ومنها إلى مرتفعات كوار إلى أجدز ومنها إلى ضفاف نهر النيجر. وكان هناك طريق آخر يربط جرمة بمنطقة بحيرة تشاد ، وكان هذا الدرب يسير من جرمة إلى تساوا ومنها يتَّجه شرقاً إلى البدير وتراغن ثم الواوات فالكفرة ومنها تتجه جنوباً إلى العوينات وجبل أندي فمنطقة بحيرة تشاد. وكان هناك طريق آخر يتجه من العوينات إلى سليمة بالقرب من بوهين (وادي حلفا القديمة) كما كان هناك درب آخر يتجه من أندي إلى جبل ميدوب (بكردفان بالسودان) ثم إلى مروي أما الطريق التي كانت تربط جرمة بالساحل فقد كانت ثلاثة: طريق من جرمة إلى أدرى عبر صحراء أوباري ومنها إلى غدامس ثم صيراته . وطريق آخر من جرمة

إلى بلدة تكرتيا (٠: كيلومتراً شرقي جرمة) ثم تعبر صحراء أوباري عن طريق واحات جرمة ثم تعبر صحراء أوباري عن طريق واحات الدوادة إلى برجن ومنها عبر وادي زجزا ومسعودة إلى الشويرف ومنها إلى غريان ثم أويا. وطريق ثالث من جرمة يسير شرقاً في وادي الأجال إلى سبها ومنها إلى دباب (بوادي الشاطيء على بعد حوالى ٢٥ كيلومتراً شرقي براك) ومنها عبر وادي زيزامت إلى جرزة ثم لبدة.

وكان هناك طريق قديم يربط ضفاف النيل بسواحل المحيط الأطلسي وهو الطريق الذي قال هيرودوت بأنه كان يوجد عليه سلسلة من الآبار كل منها على مسافة عشر أيام من الأخرى(١) وقد ظل هذا الطريق مستعملا حتى أوائل هذا القرن وقد أُطلق عليه في العصر الإسلامي طريق الحج لأن قوافل الحجاج كانت تسلك هذا الطريق في طريقها الطويل من بلاد المغرب حتى مكة بالحجاز.

وكانت لهذه الطرق مميزات عديدة منها أن نقط المياه كانت قريبة بعضها من البعض الآخر، وكان هذا

الأَمر في صالح المسافرين سواء من الآدميين أو الدواب. فقد كان التزوّد بمياه الشرب مشكلة كبيرة للرحالة قبل ظهور الجمال، إذ كان إحتمال الخيول والحمير للعطش محدود جداً بينما لم يكن في إمكان القوافل حمل كميات كبيرة من المياه لأَن ذلك لا يتأَتى إلا على حساب حمولة البضائع وعلى حساب سرعة السير أيضاً. فكان لقرب المسافة بين الآبار والعيون الفضل في حل هذه المشكلات المستعصية، وكان من ميزة كثرة العيون والآبار في هذه الطرق كثرة حيوانات الصيد كالغزال والودان مما كان يحل جزءاً من مشكلة التموين والغذاءِ بالنسبة للمسافرين(٢) وكان من مميزات هذه الطرق أنها كانت تمر بمناطق صخرية تساعد العربات والخيول والحمير على الحركة وذلك بعكس الرمال والمرود التي كانت تغوص فيها أقدام هذه الحيوانات، ورغماً عن أنها لم تكن أقصر الطرق نتيجة لأَنها كانت تتبع اتجاهات الأَراضي الصخرية الكثيرة التعاريج إلاَّ أنها كانت أسلم الطرق وأسهلها.

وكانت تقوم على حراسة هذه الدروب والمسالك

نقط عسكرية محصنة وكانت هذه النقط في العادة حصون مسورة بسور مرتفع ذي أبراج وبوسط الحصن بئر للشرب ، وكانت القلعة تشرف على وادي وكان هذا الوادي في العادة يستعمل كمخزن لماءِ المطر ، كما كان يستعمل كمرعى لحيوانات النقل . وهناك عدة أمثلة لهذه القلاع منها اطلال قلاع اي بنكنن واي مسرجن في منطقة الأَتاكوس وقلعة قصر مارا الواقعة للغرب من مرزق بمائة وثلاثة عشر كيلو متراً . وتدلّ القبور الجرامنتية الموجودة حول هذه القلاع أنه كانت هنـــاك حاميات مستقرة بهذه النواحي . وكانت فائدة هذه القلاع هي حماية طرق المواصلات بين جرمة وبلاد السافانا الأَفريقية ، كما كان من مهمتها أيضاً إيواءُ الخيول والدواب ومنحها الوقت الكافي لراحتها أو إستبدالها بغيرها أثناء الطريق . ولقد إستقرت حول بعض هذه النقط العسكرية بعض القبائل التي كانت تبيع و تشتري من القوافل المارة بعض إحتياجاتها ، وبمرور الزمن نشأَت حول هذه الحصون مدن كبرى . كانت شربة إحدى هذه المدن التي قامت حول

قلعة من القلاع التي كانت تحرس إحدى هذه الطرق. وأطلال شربة تبعد اليوم عن مرزق حوالي المائة وأربعين كيلو متراً للجنوب الغربي وهي توجد على الضفة الجنوبية لوادي شربة الذي يمتدّ من الغرب إلى الشرق وإلى الجنوب منها بقليل توجد الصحراء المعروفة باسم صحراء مرزق. وكما سبق أن ذكرت فقد كانت هذه الصحراء الرملية قبل أن تغطي الرمال الجبال الصخرية لتظهر على هيئة المرود، أرضاً صخرية تكتنفها الوديان والجبال وكانت المسالك والدروب تمرّ خلالها إلى كوار ومن المحتمل أن يكون هذا هو الطريق الذي دخل منه ملك جرمة وماترنس Maternus إلى أجزمبا Agisymba في القرن الأوّل الميلادي، كما كان هو نفس الطريق الذي سلكه عقبة بن نافع إلى كوار في القرن السابع بعد الميلاد. ويظهر من بقايا الأطلال بهذا الموقع أن مساحة المدينة كان حوالي ثمانية كيلومترات مربعة وأنه كان يحيط بها سور وخندق، وكانت المنازل والدور من كتل الأحجار المنتظمة وكانت المدينة مقسمة بشوارع وأزقة وفي وسط

المدينة قلعة لا زالت جدرانها العالية قائمة لليوم وكانت بها أدوار علوية. وعلى بعد حوالي ثلاث كيلومترات من المدينة توجد جبانة كبرى بها قبور مستديرة كبيرة ربما كانت جبكام هذه المدينة ولم يرد ذكر لهذه المدينة في كتب الأقدمين من الرومان والعرب ولو أنه من المحتمل أن يكون الاسم شربة تحريفاً لسيلابا Cellaba المدينة الجرمنتية التي ذكرها بليني.

شهدت الصحراء الكبرى خلال تاريخها الطويل آلاف القوافل تعبر جيئة وذهاباً بحار الرمال والهضاب الواقعة بين سواحل البحر الابيض المتوسط والاقطار السودانية. وكانت حركة هذه القوافل نشطة ومستمرة حتى قبل ظهور الجمال بالصحراءِ الكبرى. وسفينة الصحراءِ حديثة الظهور بالقارة الأفريقية هذا إذا استثنينا الجمل البري الذي إختفى من شمال أفريقيا من أزمان بعيدة جداً. جاء الجمل لأول مرة إلى مصر مع الفرس في القرن الخامس قبل الميلاد وقد اصطحب إسكندر الأكبر عدداً منها في رحلته إلى سيوة، إلاّ أن هذه الواحة ظلت لمدة طويلة

الحد الذي وصلته الابل غرباً(٣) وظل إنتشار الجمل في شمال أفريقيا محدوداً لمدة طويلة إذ لم يرد ذكر لهذا الحيوان في الوثائق الأَفريقية والرومانية في القرون التالية لوصول الاسكندر إلى سيوة. ولعل أول ذكر لاستعمال الجمال بأَفريقيا كان التقرير العسكري الذي ذكر فيه أن قيصر قد غنم من أعدائه بشمال أفريقيا إثنين وعشرون جملاً سنة ٤٦ ق.م ، فهذا العدد القليل يدل على أن إستعمال الجمال كان محدوداً وأن عدده بشمال أفريقيا كان قليلاً حتي ذلك التاريخ.

ويظهر أن سكان جبل نفوسه هم أول من قام باستيراد الجمال بعد سكان مدينة لبدة التي كانت منذ القرن الرابع من أهم المراكز لبيع الإبل(٤) وقد إشتهرت قبائل مزاته ولولته وهوارة بتربية الجمال والاكثار منها. واستعملت هذه القبائل ذلك الحيوان في النقل والقوافل كما استعملوه أيضاً في الحرب. ويحكى أن أحد الزعماء المسمى كاباون Cabaon قد أقام قلعة من أجساد الجمال في إحدى حروبه ضد الوندال. أما في الصحراءِ الكبرى

فقد كان المزايتون والهواريون أول من توغّلوا بجمالهم في الصحراءِ. وكان الهواريين الفضل في إكتشاف طرق القوافل الجديدة وعبور بحر الرمال. وتقول الأَساطير الهوارية أنهم هاجرو من عاصمتهم زلة الواقعة جنوبي سرت إلى زويلة المدينة المشهورة في خلال القرن الرابع الميلادي. ولعل تسمية الجمل في الصحراءِ الكبرى بالزايلة مرجعه أن هذا الحيوان جاء إلى الصحراء الكبرى لأَول مرة مع أهل زلة. كما أن أساطير الطوارق تقول بأَن الأَميرة تين حنان -وهي تعتبر أُم قبيلة الهجار أرقى قبائل الطوارق - هي أول من جاءت إلى هضبة الهجار بالجمال، ومن المرجح أن تين حنان قد عاشت في القرن الرابع الميلادي وهو لزمن الذي بدأ فيه الهواريون غزو الصحراء الكبرى.

أما الحصان فهو أقدم ظهوراً من الجمال بالصحراءِ ومع ذلك فانه لم يظهر في أفريقيا قبل القرن السابع عشر قبل الميلاد، جء هذا الحيوان إلى مصر مع الغزاة الهكسوس الأَسيويين(٥) وبطبيعة الحال إنتقل الجواد من

مصر إلى ليبيا وشمال أفريقيا بعد ذلك التاريخ.

ويرى ريدجواي Ridgeway خلاف هذا الرأي فهو يرى بأن ليبيا أو برقة بالذات كانت الموطن الأول للحصان وهو يدلل على رأيه بأن الأختام التي وجد عليها رسم الحصان بكريت ترجع للعصر السابق للمينوي الأول أي إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد. ومن المعروف أن الأقوام الذين أنشأوا حضارة العصر الحجري بكريت وهو العصر السابق للمينوي الأول كانوا مهاجرين من برقة، فلا بد وأنهم أحضروا الحصان معهم من برقة(٦) ولهذه النظرية عدة ثغرات أولها أن هذا الحيوان لو عرف ببرقة في القرن التاسع قبل الميلاد لانتقل مع القبائل الليبية المهاجرة إلى مصر. ولعرف هناك قبل القرن السابع عشر قبل الميلاد، وهو الوقت الذي ظهر فيه الحصان لأول مرة بوادي النيل عقب غزو الهكسوس. كما أنه لم يرد في النصوص للدولتين القديمة والوسطى الفرعونيتين أية أشارة إلى وجود الخيول بين حيوانات القبائل الليبية التي احتك بها المصريون.

ولعلَّ لوحة بيعنخى الموجودة بالمتحف المصري هي أول أشارة إلى وجود الحصان في يد الامراء الليبيين إذ تقول اللوحة إن الملك الكوشي بيعنخى قد تأثر جداً من هزال خيول الأمير الليبي نمرود Nemaroth أثناء حصاره للمدينة(٧). أما الصحراء الكبرى فلم تظهر بها الخيول قبل مجيء الجرامنت(٨).

وقبل ظهور الجياد كانت الحميرة تستعمل في قوافل الصحراء، وهناك عدة اشارات في النصوص المصرية أن هذا الحيوان كان يستعمل في القوافل وأنها كانت تسير آلاف الكيلو مترات عبر الصحراءِ الكبرى ويشير حرخوف Harkhuf على جدران مقبرته بأسوان أنه كان يستعين بالقوافل الليبية ليصل إلى بلاد يامووواوات وأن تلك القوافل كانت، تضم أكثر من ثلاثمائة حمار(٩) كما أن هيرودوت يقول بأن الحمير كانت تستعمل على أيامه في عبور الصحراءِ وهو يروي قصة مفادهـا أن بعض النسمونيين قد عبروا الصحراء الكبرى من سواحل سرت إلى قلب القارة الافريقية على ظهور الحمير (١٠). ونرى

في كثير من النقوش الصخريه أن الحيوانات التي تجر العربات ليست كلها من الخيول إذ نجد أن بعض تلك الحيوانات ـ على الرغم من عدم وضوح الرسم ـ طويلة الآذان قصيرة القامة وهي صفات تتوفر في الحمير أكثر من توفرها في الجياد(١١) ، كذلك يقول أحد الرواة وهو « أثين » Athene إن قوافل الجرامنت كانت تتكون في بعض الأَحيان من عدد كبير من الحمير وقد إستعان أحد التجَّار القرطاجيين ويدعى « ماجو » ثلاث مرات بهذه القوافل لعبور الصحراء.

ومن المحتمل أن تكون الثيران قد استعملت أيضاً في قوافل الصحراء ولو أنه يستبعد أن يكون استعمالها قد استمرَّ فترة طويلة بعد العهد المسيحي ، ولا زالت الثيران تستعمل حتى اليوم في دارفور وغرب كردغان (بالسودان) في الانتقال بين البلدان القريبة ولقد عثر بالصحراءِ الكبرى على عدد من النقوش التي تمثل الثيران وعليها السروج.

ويمكن أن نرسم صورة لتاريخ النقل بالصحراءِ الكبرى

على النحو التالي :ـ

كانت الثيران تستخدم في النقل قبل بداية عصور الجفاف بالصحراء ، ثم أخذت الحمير تحل محلهـا بالتدرج وظل الأَمر كذلك حتي ظهرت قبائل الجرامنت بالخيول والعربات فنشطت التجارة وأُقيمت القـلاع لحراسة الطرق بين سواحل البحر المتوسط والبلاد الواقعة للجنوب من حزام الصحراءِ الكبرى ، وقد ساعد الاكثار من الخيول(١٢) الجرامنت على سيادة الصحراء . وفي القرن الرابع الميلادي ظهر عاملان أحدهما طبيعي والآخر تجاري أوديا بهذه السيادة . فقد قلت كمية الميـاه الجوفية بالصحراءِ الكبرى نتيجة لاستهلاك مياه بعض العيون والآبار التي كانت مختزنة وذلك نتيجة لاستعمالها لمدة طويلة فذوت الكثير من الواحات وطالت المسافة بين نقط التزود بالمياه ولم تتمكن الخيول والحمير من تحمل السير مسافات أكبر مما تتحملها طبيعة أجسامهم دون الحصول على الماءِ . ومن ناحية أُخرى فقد عمل زوال الواحات والغطاء النبتي الذي كان بها على أن تزحف

رمال الصحراء وتغطّي الكثير من الطرق والدروب القديمة وأغلقتها ، ووقفت المرود وبحار الرمال عائقاً أمام قوافل الحمير والجياد .

أما العامل الاقتصادي فهو أن قبائل البربر المعروفة بقبائل الجمالة ، قد إقتنت الكثير من الجمال وغزت الصحراء . وكانت للجمل ميزتان : ميزة تحمُّل العطش ، وميزة قطع المرود وبحار الرمال . هذا ، علاوة على قدرتها في حمل بضائع أثقل من ما يحمله الحصان أو الحمار ، ولقد إقتضي الأَمر أن تقوم مدن وأسواق على أطراف بحار الرمال لاستقبال وترحيل القوافل . وحلت هذه المدن الجديدة محل المدن القديمة التي كانت تقوم على رأس المسالك الصخرية التي كانت بها دروب الجياد والحمير ، وبذلك ظهرت مدن جديدة كزويلة وغات واضمحلت مدن قديمة كجرمة وشربة .

وكانت القوافل الجرامنتية تستورد من أسواق موانيء البحر المتوسط أشياء كثيرة منها الزيوت والخمور وكانت هذه السوائل تعبأُ عادة في الأَمفورات الكبيرة التي كانت

تحمل على عربات بها فتحات لتثبت بها هذه الجرار.
كما كانت تشتري من تلك الأسواق أيضاً المنسوجات المختلفة من حريرية وصوفية، وكان الجرامنت مولعين بلبس الإزار الروماني المصنوع من الجلد. أما الأسلحة الحديدية فقد كانت أهم المبيعات التي حرص الجرامنت على الحصول عليها لحساب قبائل التبوا. أما أنواع الفخار المختلفة فقد حرص الجرامنت على إحضار الأنواع العديدة منها لغرض إستعملها ولغرض التجارة أيضاً، فلقد عثر في حفريات جبانة سانية بن هويدي الواقعة بالقرب من جرمة على أعداد كبيرة من مختلف أنواع الفخار منها الأمفورات المصنوعة في لبدة وصبراتة ومنها الأواني الزجاجية المصنوعة بالأسكندرية والقوارير التي من إنتاج المصانع التونسية أما أواني التيراسجلاتا Terra Sigillata الشهيرة فقد عثر على المئات من أشكالها المختلفة. وتعد الأواني السميونية Samion Wares التي من صنع الليزو بجنوب فرنسا أهم ما عثر عليه بتلك الجبانة، فمنها الآنية التي تحمل رقم هـ ٤ وهي سلطانية كبيرة

نقشت على جدرانها الخارجية زخارف مكررة في صفوف متعاقبة تمثل مناظر الاخصاب المختلفة في النبات والحيوان والانسان. هذا كما وجد بتلك المقابر أيضاً عدد من القناديل الفخارية المختومة وعلى أقراصها مناظر تمثل بعض شخصيات الأَساطير الافريقية والرومانية.

وكانت وسيلة الجرامنت في التجارة هي المبادلة والمقايضة ولم يلجأوا إلى نظام سك العملة المعروف بالعالم الروماني بل كانوا يستعملون في المبادلة والائتمان بعض المعادن الثمينة كالفيروز والذهب والفضة، وكانوا أحياناً يستعملون أصداف البحر، وقد وجدت بعض قطع العملة الرومانية في جرمة القديمة ولكن يظهر أن تلك العملة كانت تستعمل فقط للمبادلة في أسواق لبدة وصبراته وغيرها من أسواق المدن الخاضعة للرومان. أما الحاصلات المحلية التي كان الجرامنت يتاجرون فيها فكانت الحيوانات وأهمها الخيول التي يقول بليني إن إنتاج الجرامنت منها سنوياً كان يبلغ المائة ألف مهر وكذلك الثيران والأَبقار. أما الغلة الرئيسية التي كان مورد الثروة للبلاد

فكان الفيروز الأخضر الذي كان يسمى في العالم الروماني بالكاربونكل ، فقد كان هذا الحجر يعدّ من الأحجار الثمينة في العالم القديم وكانت قيمته تعادل قيمة الماس في عالمنا اليوم. وقد عرف الفيروز منهذ عهد الفراعنة(١٣) وقد عرف لديهم باسم «حجر التمحو الذي من واوات» Temhy Stones of Wawat وقد سمي بحجر التمحو لأن رجال قبائل التمحو (وهم أجداد القبائل المعروفة اليوم بالتبو) هم الذين كانوا يبيعون هذا لقدماء المصريين فسمي بذلك نسبة إليهم. وهذا يذكرنا بأن هذا الحجر كان يسمى في العالم الروماني بالحجر القرطاجي Carthaginian Stones لأن القرطاجيين كانوا هم الواسطة لتوصيله إلى عالم البحر المتوسط فسمي بذلك نسبة إليهم أيضاً ، أما الجزء الثاني من الجملة وهو من واوات of Wawat فانها تحديد لموطن الحجر. فمن المعروف أن بلاد التمحو كانت تشمل رقعة واسعة من الصحراء الكبرى كانت تمتد من الضفة الغربية للنيل جنوبي أسوان حتي جبل بن غنيمة بفزان، ومن الحدود الجنوبية للواحات

المصرية بالصحراءِ الغربية حتي أطراف السافانا في تشاد ، وهنا نرى أن النص الفرعوني يحدد المكان في وطن قبائل التمحو الواسع الأَرجاءِ فيقول إنها في المنطقة المسماة بالواوات فأَين كانت هذه الواوات .

جاء في النص المدوَّن على جدران مقبرة حرخوف الذي عاش خلال حكم الأُسرة السادسة بالدولة القديمة أن هذا التاجر ذهب مرة في رحلة إلى بلاد يام Yam (١٥) عن طريق « وحات » فوجد أن ملك يام قد خرج بجيشه لمقاتلة التمحو ، ويشير النص أن ملك يام كان يقصد إلى الواوات الواقعة « عند أقصى الركن الغربي من السماءِ » وهذا يعني أولاً أن الواوات تقع في إتجاه الغرب وثانياً أنها تقع في أقصى الغرب من بلاد النوبة أي في إتجاه الكفرة وربيانة وفزان . فإذا بحثنا في هذه المنطقة لوجدنا هناك بعض الواحات المعروفة لدى سكانها وهم من التبو باسم الواو مثل الواو الكبير وواو الناموس ، فهل كانت هذه الواوات هي موطن الفيروز الأَخضر ؟ كانت هناك بعثة علمية فرنسية تقوم باستكشاف المنطقة الواقعة بين

واحدة الكفرة وشرقي فزان عندما عثرت على محاجر للفيروز الأَخضر في المنطقة الواقعة شرقي الواو الكبير وواو الناموس وهي التلال المسماة بتلال «ايغي زوما» (١٦) ومن البحث إتضح بأَنه هو المكان الذي كان التبو يأْخذون منه الفيروز الأَخضر إلى الفراعنة وكذلك إلى الجرامنت.

يقول بليني إن الكاربونكل (الفيروز) كان يؤتى به «من جبل يسمى غيري وكان يلي الاسم السابق كلمة تعني الفيروز» (١٨) فإذا حللنا هذه الجملة لوجدنا أن غيري ما هو إلاَّ تحريف أو خطأْ في نطق الاسم الحقيقي وهو «إيغي» أما الاسم الآخر المضاف إلى «إيغي أو غيري» والتي كانت تفيد وجود الفيروز في ذلك المكان فقد كانت كلمة «زوما» وهي تعني الفيروز بلغة التبو.

وإلى جوار الفيروز الأَخضر كانت تجارة الملح تدر الذهب للجرامنت، فقد كان الملح معدوماً في بلاد السافانا الافريقية وربما كان هذا هو السبب الرئيسي الذي من أجله طلب ملك جرمه مرسيس Mrsys مساعدة جوليوس

ماترنس Julius Maternus .

كانت مناجم الملح الشهيرة باجدز بكوار إحـدى أهداف الحملة الجرامنتية إذ كان الملح يباع في أسوان النيجر بمثل حمولته ذهباً.

وكانت الأسواق الافريقية تمد التجارة الجرامنتية بمختلف السلع من المواد الخام وأهمها جلود الحيوانات والعاج وبيض النعام والبخور والبهارات والذهب والفضة، وكان الجرامنت يحملون هذه الأشياء إلى جرمة لتصنيعها أو لأسواق لبدة واويا وصبراته لبيعها.

وكانت الزراعة بفزان في عهد جرمة تعتمد إلى حد كبير على المياه الجوفية إلا أنه من الملاحظ أن كمية المياه الجوفية كانت أكثر من اليوم ولذا لمن المحتمل أن المساحة المزروعة قديماً كانت أوسع ولا نعرف شيئاً عن الحاصلات الزراعية ولكن يبدو أنه كان بينهـا البصل والذرة والنيلة التي كانت تستعمل للصباغة.

وكان هناك عدد كبير من أشجار النخيل المثمر

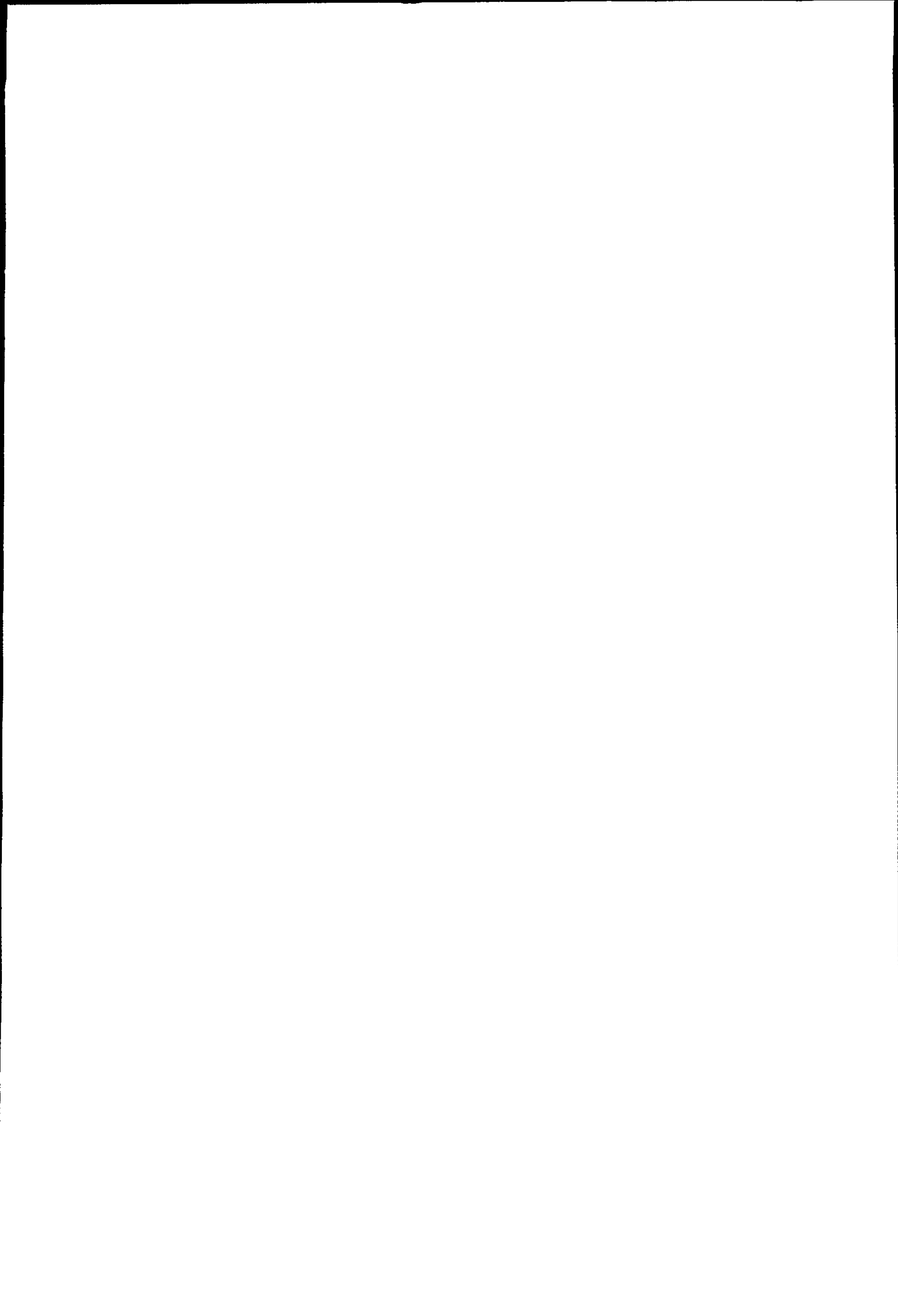
التي كانت تمد سكان الواحات بالتمور الجيد وكانت هناك مراعي كافية للحيوانات التي كان أهمها الخيول والأَبقار والخراف والماعز وغيرها . إشتهرت جرمة بالصناعات الدقيقة وأهمها صناعة الحلى مثل الذهب فقد وجدت أمثلة تدل على دقة الصياغ الجرامنت في صناعة الذهب والفضة ومنها صقل حجر الفيروز الأَخضر وعمل قطع فنية جميلة منه .

وقد لعب الجرامنت في تاريخ الصحراءِ الكبرى نفس الدور الذي لعبه الفينيقيون في تاريخ البحر المتوسط فكان لهم الفضل في تمدين الشعوب الأَفريقية الموجودة إلى الجنوب منهم وذلك عن طريق إدخال علوم ومعارف وصناعات العالم المتحضر إليهم كما كان لهم الفضل أيضاً في تعريف كتاب الرومان وغيرهم بعالم أفريقيا الواقع للجنوب من الصحراءِ الكبرى ، وإمدادهم بالمعلومات التي دونها جغرافيو العالم الروماني في كتبهم فكان لهذه الكتابات فضل كبير في إرشاد الرحالة الأُوربيين خلال عصر الكشوف الجغرافية بالقارة الأَفريقية .

(1) Herodotus; IV. 183.
(2) Ibid; II, 32.
(3) Boville; P. 41.
(4) Haynes; P. 67.
(5) Breasted, A history of Egypt P. 17.
(6) Ridgeway; P. 216 ff.
(7) Oric Bates; P. 28.
(8) Arkeli; a history of the Sudan P. 122.
(9) Strabo; XVII 828.
(10) Grasiosi; l'arte rapestre della Libya P. 92.
(11) Breasted, Ancient Rocords I, 335
(12) Warmington; P. 66.
(13) Grasiosi; Ibid P. 96.
(14) Strabo; Ibid 2.
(15) Breasted; Ibid IV, 373.
(16) Oric Bates; P. 48.
(17) Ibid; P. 49
(18) Monod; VI part II.
(19) Arkell; Wanyanga P. 18.
(20) Strabo; ibid, 635.



خَاتِمَة



انهيار جرمة

مهَّدت الفوضى التي تردَّت فيها شمال أفريقيا في القرن السادس الميلادي ، السبيل للأَمبراطور جستنيان أن يضم شمال أفريقيا إلى أملاك الأَمبراطورية الرومانية الشرقية فأَرسل قائده بلزاريوس سنة ٥٣٣ م . وتمكن هذا القائد من الاستيلاءِ على البلاد بيسر وسهولة ورحَّب به الأَهالي كمخلص لهم ومنقذ من ظلم الحكام الوندال . وخضعت شمال أفريقيا للسلطان الجديد إلاَّ أن هذا الخضوع كان إسمياً أكثر منه فعلياً فقد كانت الجيوش البيزنطية تقيم فقط في المدن المسورة بينما كانت الأَرياف

والنواحي خاضعة لقبائل البربر وزعمائهم الأَقوياء وكان الحكام البيزنطيون يشترون سكوت زعماء البربر بالذهب. والحقيقة أن موقف البيزنطيين كان أضعف بمراحل من موقف الرومان ، فقد كانت للآخرين جاليات تقيم في المدن والريف وكان أفراد هؤلاءِ الجاليات خير دعامة للحاميات الرومانية بينما لم يكن يقيم من المدنيين البيزنطيين أحد بشمال أفريقيا ، وكانت الكنيسة الرومانية ذات أتباع ومريدين بينما لم يكن لكنيسة بيزنطة من الأَتباع ما يمكنها أن تعتمد عليه. ولقد حاول الأَمبراطور جستنيان فرض مذهب الكنيسة الشرقيــة على السكان كما حاول القضاء نهائياً على الوثنية إلا أن كلا المحاولتين قوبلتا بالرفض والمقاومة الايجابية.

كانت تعيش على سواحل طرابلس عدد كبير من القبائل منها قبائل لواته وهم اللوتوفاجي الذين كانوا يسكنون حول مدن أويا وصبراته وسهل الجفاره منذ أقدم العصور وكانت منهم أيضاً قبائل زناته وهي التي كانت تسكن الجزء الغربي من جبل نفوسة وقبائل مزاته

التي كانت تسكن منطقة مزدوه وجرزة وقبائل هوار التي كانت تسكن في خليج سرت والتي شيدت عاصمة لها في بلدة زلة وكانت هذه القبائل دائماً في شجار مع بعضها على المراعي ومع الأمبراطورية الرومانية ثم مع الوندال من بعدهم .

حدث الصدام الأول بين البيزنطيين والبربر أثناء إحدى الاحتفالات التي أُقيمت بلبدة في منتصف القرن السادس الميلادي إذ قامت مشادة بين الحاكم البيزنطي سرجيوس وبعض زعماء لواته ذبح فيها حرس الحاكم البيزنطي زعماء البربر الحاضرين في الاحتفال. وكانت هذه هي الشرارة التي أطلقت ثورة البربر إذ قام أحد زعمائهم وهو انطالس Antalas بمهاجمة لبدة وتدميرها ، وقتل في المعركة سرجيوس كما أباد جيشاً بيزنطياً آخر كان يقوده سليمان Soliman . وفي أعقاب هذا النصر تحركت كافة قبائل البربر لتشد إزر اللوايتين ولم يتمكن القائد البيزنطي تروجليتا Troglita إلا بالاحتفاظ بشريط ساحلي ضيق حول تونس أخذ يدافع عنه بكل

صعوبة (١).

وبلغ خطر تهديد القبائل البربرية للأمبراطورية البيزنطية أن هاجم البربر واحات الصحراء الغربية في مصر بل أنهم وصلوا إلى مسافة قريبة من الاسكندرية. وعند ذلك تحركت الجيوش البيزنطية وأخذت تقمع الثورة بشدة وعنف مخربة الضياع والمساكن مدمرة الآبار والمزارع، واضطر البربر إزاء هذا العنف إلى هجرة أوطانهم ومراعيهم وكانوا في ذلك الوقت قد أكثروا من تربية الجمال كما أكثروا من إستعمالها في السفر والحرب، فتوغلوا فراراً من البيزنطيين في الصحراء حيث لاقاهم الجرامنت - ووجدت القبائل البربرية نفسها بين عدوين: البيزنطيين على ساحل البحر من ناحية، والجرامنت في الصحراء من ناحية أخرى، فكان عليهم أن يفتحوا لأنفسهم طريقاً للحياة فاختاروا أن يهاجموا الجانب الأضعف ونشبت بين المزاتيين والجرامنت حرب لافحة الأوار إنتهت باستيلاء المزاتيين على منطقة حمادة الحمراء وجبل حسونة وكذلك إلى إستيلائهم على ودان(٢)

ثم وادي الشاطيء وأصبحت ودان قاعدة ملكهم. أما الهواريون فقد إنسحبوا أمام البيزنطيين تاركين زلة في يدهم، وتوغلوا في الصحراء حيث شيدوا مدينة صغيرة سموها بزويلة تصغيراً لعاصمتهم القديمة زلة ولم يقيموا ولم يقيموا حول عاصمتهم الجديدة سوراً لحمايتها مكتفين ببعد موقعها(٣) ولقد خرجت المنطقة الواقعة في شرقي فزان من يد الجرامنت إلى يد الهواربين.

ويظهر بأن قبائل النيجر أيضاً قد إشتد ساعدها فاستقلت عن الجرامنت وأقامت عاصمة لها في خاور(٤). ولم يبقَ في ملك الجرامنت سوى منطقة وادي الأَجال ووادي مرزق وتقلصت مملكة فزان لتشمل هذين الواديين وما بينهما.

وفي نفس هذا الوقت حدث تغير ملحوظ في حالة الطقس كان من نتيجته إزدياد الجفاف وقلة المياه الجوفية وتحرُّك مرود الرمال حتى غطت الكثير من الدروب والطرق القديمة وأصبح عسيراً على العربات والخيول أن تستمر في السير في الطرق القديمة الصخرية

الصلدة. وفي نفس ذلك الزمن ظهرت قبائـــل البربر بجمالهم التي كان ي إمكانها أن تحل المشكلة بما لها من قابلية على تحمل العطش والقدرة على إختراق مرود الرمال ولذا فلم يصبح صعباً على قبائل المزاتيين والهواريين أن ينتزعوا سيادة الصحراء من الجرامنت.

ضعفت جرمة ويلاحظ آثار هذا الضعف في المباني التي ترجع للقرن السادس الميلادي وما بعده وهي مبان شيدت على غير ترتيب أو نظام كما إنها شيدت بقطع الأَحجار القديمة ومن الأَعمدة الأُولى التي إنتزعت من أماكنها لاعادة إستعمالها ، وكذلك في القبور الصغيرة الفقيرة المحتويات التي ترجع للقرن السادس والسابع الميلاديين.

وتشير روايـــة إبن عبدالحكم إلى أن العرب قد جاءوا في حملتين كانت الأُولى ابان حكم الخليفة عثمان ابن عفان وكانت بقيادة عمرو بن العاص وأن هذه الحملة وصلت حتي طرابلس ، وفي أثناء تلك الحملة أرسل عمرو أَحد قواده إلى ودان ففتحها وفرض عليها

الجزية ورجع .

أما الحملة الثانية فقد كانت بقيادة القائد الشهير عقبة بن نافع بن أُخت عمرو بن العاص سنة ٦٦٩ م . وخرج عقبة من معمداس وهي مدينة صغيرة بالقرب من سرت في جيش يتكوّن من ٤٠٠ فارس و ٤٠٠ من الهجانة و ٨٠٠ من حمَلَة الماء والتموين ولم تفصح الرواية عن عدد المشاة أو عن هل كانت مع الحملة أدوات ومعدات حصار أم لا .

وحاصر عقبة ودان وتقول الرواية إن المدينة قد سلمت بعد مقاومة ضعيفة ، وزحف عقبة بعد ذلك على جرمة فسلم له ملكها دون مقاومة وكان مصيره النفي إلى المشرق ، إلاَّ أن القلاع الجرامنتية الأُخرى قد قاومت رغم إستسلام الملك ، حتى أن عقبة اضطر لفتحها الواحدة إثر الأُخرى ، ثم زحف على كوار فاتحاً حصونها . ويروي المسلمون من سكان جمهورية النيجر اليوم أن عقبة قد وصل إلى نهر النيجر وأنه قد خاض مياه ذلك النهر بفرسه .

وتقول رواية بن عبد الحكم أن عقبة قد رجع بطريق آخر ربما كان هو طريق القطرون إلى موضع مدينة زويلة وهذا يعني بأن زويلة لم تكن قد قامت بعد حتى القرن السابع الميلادي كمدينة كبيرة، وتشير الرواية إلى أن عقبة قد رجع لجنوده بعد خمسة أشهر(٥) وهي مدة نشك في أن عقبة قد أتمَّ جميع هذه الفتوحات فيها فلا بد وأن حملة كبيرة مثل هذه استغرقت مدة أطول مما ذكر.

ولكن يظهر بأن حملة عقبة لم تضع نهاية لمملكة جرمة إذ نجد أن لكاتب الفارسي الشهير باليعقوبي يذكر عن جرمة أنها ما زالت على قيد الحياة: «وجنس يعرف بفزان أخلاط من الناس لهم رئيس يطاع فيهم وبلد واسع ومدينة عظيمة وبينهم وبين مزاته حرب لافح أبداً». ذلك كان حال جرمة في القرن التاسع الميلادي، حروب متصلة بينهم وبين البربر المزابتيين القادمين من مزده بالشمال والذين إستولوا على ودان ووادي الشاطيء ومن ناحية أُخرى أقام الهواريون مدينة زويلة التي أخذت

أهميتها تزداد، ويظهر من النص أن أهل زويلة وودان كانوا من البربر الذين إعتنقوا الإسلام بينما ظلت جرمة على وثنيتها في أغلب الأمر. ونستنتج من الكلمات القليلة التي دوّنها الجغرافي العربي الشهير بالمسعودي عن جرمة أنها كانت لا زالت في الوجود في القرن العاشر الميلادي أيضاً، أما البكري الذي يؤرخ للقرن الحادي عشر فيشير إشارة مبهمة إلى أن جرمة كانت لا تزال في الوجود فمن المحتمل أن بلدة تامرما كان يقصد به جرما ولا سيما وأنه قال بأنه كان يسكنها بنو فزان، فلا بد وأن تحريفاً بسيطاً حدث أثناء النقل أو النسخ. ويمكن أن نستدل مما كتبه البكري أن جرمة كانت بها سجلات مثل سجلات تحقيق الشخصية وأن المراسلات بين أجزاء المملكة كانت متصلة وأن الأمن كان مستتباً. إلاّ أن نص البكري يشير إلى إزدياد نفوذ زويلة وإلى أنها أصبحت عاصمة لفزان حتى أصبحت تعرف باسم مدينة فزان الكبرى.

وليست هناك من أشارة إلى إستيلاء أُسرة بنو الخطاب

وهم الذين حكموا زويلة من القرن العاشر الميلادي على جرمة وإن كانت هناك دلائل تشير إلى أن جرمة أصبحت تدين بالولاءِ لزويلة .

وقد وضع إستيلاء قراقوش الأرمني وكان أحد ضباط صلاح الدين الأيوبي على زويلة سنة ٥٦٩ هـ سنة ١١٧٤ م نهاية أُسرة بني الخطاب في زويلة . وتفصيل الأمر أن العلاقات بين صلاح الدين الأيوبي وبين مولاه السلطان نور الدين حاكم دمشق كانت قد ساءت لدرجة بات معها صلاح الدين يفكر في الانسحاب من مصر إلى اليمن أو إلى أفريقيا . واستعد أخوه شاهنشاه بن أيوب لتنفيذ خطة ترمي إلى الاستيلاءِ على شمال أفريقيا ، إلا أن جميع هذه المشاريع صرف النظر عنها بعد عودة علاقات الود والصفاءِ بين نور الدين وصلاح الدين . ولم يرض ذلك بعض الضباط الطموحين للغزو والفتح فتركوا مصر وخرجوا بجنودهم وكان من ضمن هؤلاءِ الضباط ضابط أرمني إسمه قراقوش . سار هذا الضابط بفيلق من الفرسان واستولى على سيوه ثم أوجله ومنها زحف على زويله

واستولى عليها وعذَّب ملك زويلة المسمى محمد بن خطاب حتى مات (٦). ثم زحف على ودان واستولى عليها ومنها خرج إلى طرابلس الغرب حيث إستقر حاكماً عليها. وظل قراقوش حاكماً على البلاد حتى خرج عليه أعداؤه وحاصروه في ودان حتى سلم وقتل سنة ٦٠٩ هـ ١٢١٢ م. وبمقتل قراقوش أصبحت البلاد بغير حاكم مما أطمع الجيران فيها. وكان الزغاويون، وهم سكان شمال تشاد، قد أقاموا مملكة لهم في كانم في القرن الثاني عشر الميلادي وأصبحت حدودهم تتاخم فزان كما كان ملوكهم يعتمدون في حياتهم الاقتصادية على إستمرار طريق القوافل مع طرابلس مفتوحاً، فلما دالت سلطة قراقوش إستولى الزغاويون الذين عرفوا باسم الكانوري على فزان وجعلوا من مدينة تراغن مقراً للحاكم الكانوري أو الكانمي ويقول أبو الفدا في كتابه تقويم البلدان: «وفي شرقي غدامس ودان وهي جزائر نخل... وفي شرقيها فزان وهي أيضاً جزائر نخل ومياه ولها مدن وعمائر أكثر من ودان والجميع الآن في طاعة ملك كانم».

لم يستقر الكانمبون مدة طويلة في فزان إذ سرعان ما ظهر الخرمان في وادي الأَجال. ورغماً عن أن بعض المؤرخين الحديثين يزعم أن الخرمان قبيلة عربية إلا أن المعروف عنهم أنهم غير ذلك. إذ يقول الشيخ فالح، وهو أحد الذين علقوا على تاريخ بن غلبون، عنهم «هم أُمم من البربر يعرفون بالخرمان يسكنون في وادي الأَجال» (٧) ومن أساطير الأَهالي يستدل أنهم كانوا يستعملون الخيول لا الجمال وأنهم كانوا في حرب ضروس مع الطوارق. كل هذا يدل على أن الخرمان كانوا غير الطوارق وغير الكانميين وغير العرب، فمن هم الخرمان؟

ظل جميع الرحالة والأَثريين الذين جاءوا إلى جرمة يظنون أن جرمة الجرامنتيه أي المعاصرة للرومان هي الأَطلال المعروفة باسم جرمة القديمة وهي مدينة كبيرة جميع مبانيها من اللبن وبها قصر كبير للناحية الغربية ويحيط بها سور بيضاوي الشكل، وبالمدينة ثلاث مساجد لا زالت أطلالها قائمة للآن. وظلت هذه الفكرة هي السائدة، حتى قمت بحفرياتي سنة ١٩٦٢ وما بعدها



القسم الاسلامي من جرمة القديمة وتظهر به اسوار القصبة

فاتضح وجود مدينة أُخرى تحت المنازل المبنية بقوالب الطين واتضح أن هذه المدينة السفلية قد بنيت بكتل ضخمة من الأَحجار المنتظمة وبها من الأَعمدة والعقود والتيجان ما يجعلنا نعتبر هذه المدينة إحدى مراكز الثقافة الاغريقية والرومانية القديمة . وقد أدَّى المزيد من البحث إلى التوصُّل إلى الحقائق التاريخية التالية :

أن مدينة جرمة القديمة كانت قد ضعفت إبتداءً من القرن السابع الميلادي إلَّا أنها ظلت على قيد الحياة تغالب الزمان حتى القرن التاسع الميلادي حيث هجرت تماماً وأخذت الرمال والأَتربة تغطيها وأقام الأَهالي مزارعهم ونخيلهم فوق أطلال المباني القديمة .

وفي القرن الثالث عشر الميلادي رجع الناس للسكني في الموقع القديم إلَّا أنهم هذه المرة أقاموا مساكنهم ومساجدهم من اللبن ، ويظهر أن الضربة التي نالتها زويلة على يد قراقوش ، تلك الضربة التي أودت بمملكة الهواريين ، قد أضعفت قبائل البربر الذين سبق أن أتعبوا مملكة جرمة بغاراتهم المتكررة ويظهر أن ظهور جيوش

الكانوري الأَفريقيين قد زاد من ضعف البربر الهواريين حتى أنهم آثروا الهجرة إلى الغرب إلى هضبة الهجار تاركين فزان كلية ، وأفسحوا بذلك المجال للجرامنت لاعادة تنظيم قوتهم ، إلا أن جرمة وقد أسلم سكانها قد نسيت تقاليدها الوثنية والمسيحية كما نسيت طراز البناء الرومانية الفخمة واستبدلتها بالطراز الصحراوي المغربي ، فأَقامت القصر الغربي بأَبراجه المربعة وأسواره العالية على طراز القصور الكانورية الأَفريقية . أما مسجدها الجامع فقد كانت المئذنة من طراز الصومعة هي نوع كان يميز المئذنة المغربية بشمال أفريقيا .

ويظهر أن تحريفاً بسيطاً في نطق الاسم قد حدث عفواً أو قصداً لتمييز جرمة المسيحية عن جرمة الاسلامية فسميت بخرمة . ورغماً عن إسلامهم فقد ظل الجرامنت أو الخرمان مخلصين للحيوان الذي جاء بأَجدادهم من مواطنهم الأُولى إلى فزان وهو الحصان . فقد ظلت الجياد عماد فرق الفرسان التي كانت تكون العمود الرئيسي لجيش الخرمان .

ومدت خرمة نفوذها حتى بلغ زويلة شرقاً وسوكنة شمالاً وضمت إليها غدامس إلا أنها عندما أرادت أن تبسط سلطانها على جهات غات وما يجاورها إصطدمت بقوة جديدة إبتدأت في الظهور وكانت هذه القوة هي قوة الطوارق. فمن هم الطوارق ومن أين جاءوا؟

لا زال البحث الأثري والأنثروبولوجي بخصوص هذا الموضوع قاصراً للآن. فالطوارق اليوم ينتشرون في الصحراء الكبرى في مساحة تكاد تعادل مساحة أوربا وهذا يجعل تتبع تاريخهم من الأمور الصعبة هذا علاوة على أن قبائل الطوارق ما زالت تعيش إلى اليوم عيشة البداوة ولم يقم إلى الآن أي مؤرخ بكتابة تاريخهم. ولقد ظن بعض المؤرخين أن الطوارق هم من سلالة الجرامنت، على أساس أن الجرامنت كانوا من السلالات الأندو أوربية الأولى التي سكنت دواخل القارة الأفريقية. غير أن هذه الحجة يدحضها وجود عدد كبير من القبائل الأخرى من غير الجرامنت ممن ينتمون لنفس السلالة وعاشوا أيضاً في أفريقيا مثل الجاتولي وغيرهم.

وإستناداً للبحوث التي قمت بها يمكنني أن أقدم الحقائق التالية :

« منذ عصور قديمة كانت تعيش هناك مجموعة كبيرة من القبائل في المنطقة الواقعة بين غرب ضفاف النيل والمحيط الأطلسي ، وكانت تلك القبائل من الناحية السلالية قد تكونت من إمتزاج سلالات البحر الأبيض المتوسط بالسلالات الزنجية الأفريقية ، وكانت درجة ذلك الامتزاج تتفاوت من مكان لآخر. ففي الشمال كانت نسبة دماء البحر الأبيض المتوسط أكثر أما في الجنوب فقد كانت المميزات الزنجية أوضح. وقد كانت تلك القبائل تتكلم لغة من الفصيلة البربرية الحامية إلا أن اللهجات كانت تختلف من مكان إلى آخر وكانت درجة الاختلاف تكبر في بعض الأحيان لدرجة أن قبيلة منها قد لا تفهم لهجة الأخرى. وقد ظلت تلك القبائل التي عاشت منذ أيام الفراعنة موجودة طول أيام اليونان والرومان والبيزنطيين بل ظلت في تلك المواطن حتى الأيام الأولى للفتح الإسلامي. وكل ما في الأمر أنها كانت تغيّر مساكنها ومواطنها

تغييراً طفيفاً بالانتقال من مكان لآخر جرياً وراء المراعي أو في عمليات الكر والفر في الحروب الأهلية بين القبائل والبطون.

وكانت هناك مجموعتان رئيسيتان من تلك القبائل؛ المجموعة الشمالية وهي التي كانت تعيش بالقرب من الشاطيء، ثم المجموعة الجنوبية وهي التي كانت تعيش في الصحراء، ومن المجموعة الأخيرة كان الجرامنت.

وقد قامت المجموعة الشمالية بالتوغل في الصحراء لأسباب إقتصادية وسياسية حيث أخذت تضغط على القبائل الجنوبية القاطنة في فزان حتى تغلبت عليها نهائياً واستقرت في وحاتها.

إلاَّ أنه إبتداءً من القرن السابع الميلادي ظهرت قوة جديدة في الميدان وكانت هذه القوة الجديدة هم العرب الذين إبتدأوا خلال القرن الثامن والتاسع والعاشر في الاستقرار بأعداد ليست كبيرة في شمال أفريقيا، وأخذوا بدورهم يدفعون بالقبائل البربرية الشمالية التي إستقرت

بواحات شمال فزان صوب الجنوب. ولما جاءت موجة العرب الهلاليين والسليميين وكانت هذه أكبر من الموجات السابقة، دفعت ببربر الشمال بقوة إلى ما وراء فزان في الجنوب فاستقروا في هضبة الهجار وتسيلي وفي الصحراء الكبرى حيث تكاثروا وتناسلوا حتى أصبحت معها الواحات القليلة التي سكنوا فيها غير كافية لاطعامهم. ويمكن أن نجد في ذلك التفسير التاريخي لقيام دولة المرابطين التي وحَّدت قبائل الطوارق في جنوب الصحراء الكبرى واتساع هذه الدولة حتى بلغت حدودها أسبانيا شمالاً وحدود مصر شرقاً، ولكن ما لبثت هذه الأَمبراطورية أن تفككت حتى قضي عليها الموحدون نهائياً، ورجع الطوارق وغيرهم من قبائل البربر إلى عيشة البداوة حيث تمتعت كل قبيلة فيها باستقلالها تحت حكم شيخ أو رئيس.

ولا يرجع الطوارق إلى أرومة واحدة كما وأنهم ليسوا من سلالة واحدة، وذلك أنهم تكوَّنوا من إمتزاج عدة قبائل من البربر مثل هوارة. ومزاته زناته، ولمتونة

وغيرهم وكانت هذه القبائل ترتبط فيما بينها بوشائج الدم واللغة المشتركة أو اللهجات المتقاربة ويقول ابن خلدون في ذلك:

«وكان موطن الجمهور من هوارة هؤلاء ومن دخل في نسبهم من أخونهم البرانس والصغر لأَول الفتح بنواحي طرابلس وما يليها من برقة كما ذكره المسعودي والبكري وكانوا ظوعن وأهلين . ومنهم من قطع الرمل إلى بلاد الفقر وجاوز لمطة من قبائل الملثمين فيما يلي بلاد الكوكو من السودان تجاه أفريقيا ويعرفون بنسبهم هكاره قلبت العجم. وأوه كافاً أعجمية تخرج بين الكاف العربية والقاف، وكان لهم في الردة وحروبها آثار ومقومات ثم كان لهم في الخارجية والقيام بها ذكر وخصوصاً الأَباذية منها»(٨).

وفي مكان آخر يقول:

«الطبقة الثانية من صنهاجة وهم الملثمون وما كان لهم بالمغرب من الملك والدولة. هذه الطبقة من صنهاجة

هم الملثمون الموطنون بالقفر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب أبعدوا في المجالات هناك منذ دهور قبل الفتح لا يعرف أولها فأصحروا عن الاريباف ووجدوا بها المواد وهجروا التلال وجفوها ، واعتاضوا عنها بألبان الأنعام ولحومها إنتباذاً عن العمران واستئناساً بالانفراد وتوحشاً بالغر عن الغلبة والقهر ، فنزلوا ريف الحبشة جواراً ، وصاروا ما بين بلاد البربر وبلاد السودان حجزاً ، واتخذوا اللثام خطاماً تميزوا بشعاره بين الأمم ، وعموا في تلك البلاد وكثروا ، وتعددت قبائلهم من كزالة فلمتونة فمسوفة فوتريلة فتاركا فزغاوه ثم لمطة إخوة صنهاجة كلهم ما بين البحر المحيط بالمغرب إلى غدامس من قبلة طرابلس وبرقة »(٩) .

وكما سبق أن ذكرنا فقد كان الطوارق في مبدأ أمرهم مجموعة من القبائل المتفرقة يرأس كل قبيلة منها رئيس أو زعيم وكان إذا ما ألمت بمجموعة منهم خطر إتحدوا تحت رئيس من هؤلاءِ الزعماءِ وكان يطلق عليه إسم امغار أي القائد أو السلطان .

ويظهر أن مجموعة من تلك القبائل قد إستقرّت حول بلدة البركان قرب غات، وكانت تلك الواحة التي تقع في منتصف المسافة بين البحر الأبيض المتوسط والأقطار السودانية موقعاً إستراتيجياً واقتصادياً ممتازا وكانت القوافل عدة تتوقف فيه لتستريح من عناء السفر الشاق الطويل. وقد وجدت تلك القبائل أنه من الأنسب لها أن تقيم في منطقة قريبة منها سوقاً تجارية للبيع والشراء وقد وجد هذا الأمر هوى في نفوس تجّار غدامس الذين وجدوا في ذلك الأمر ربحاً وافراً لهم.

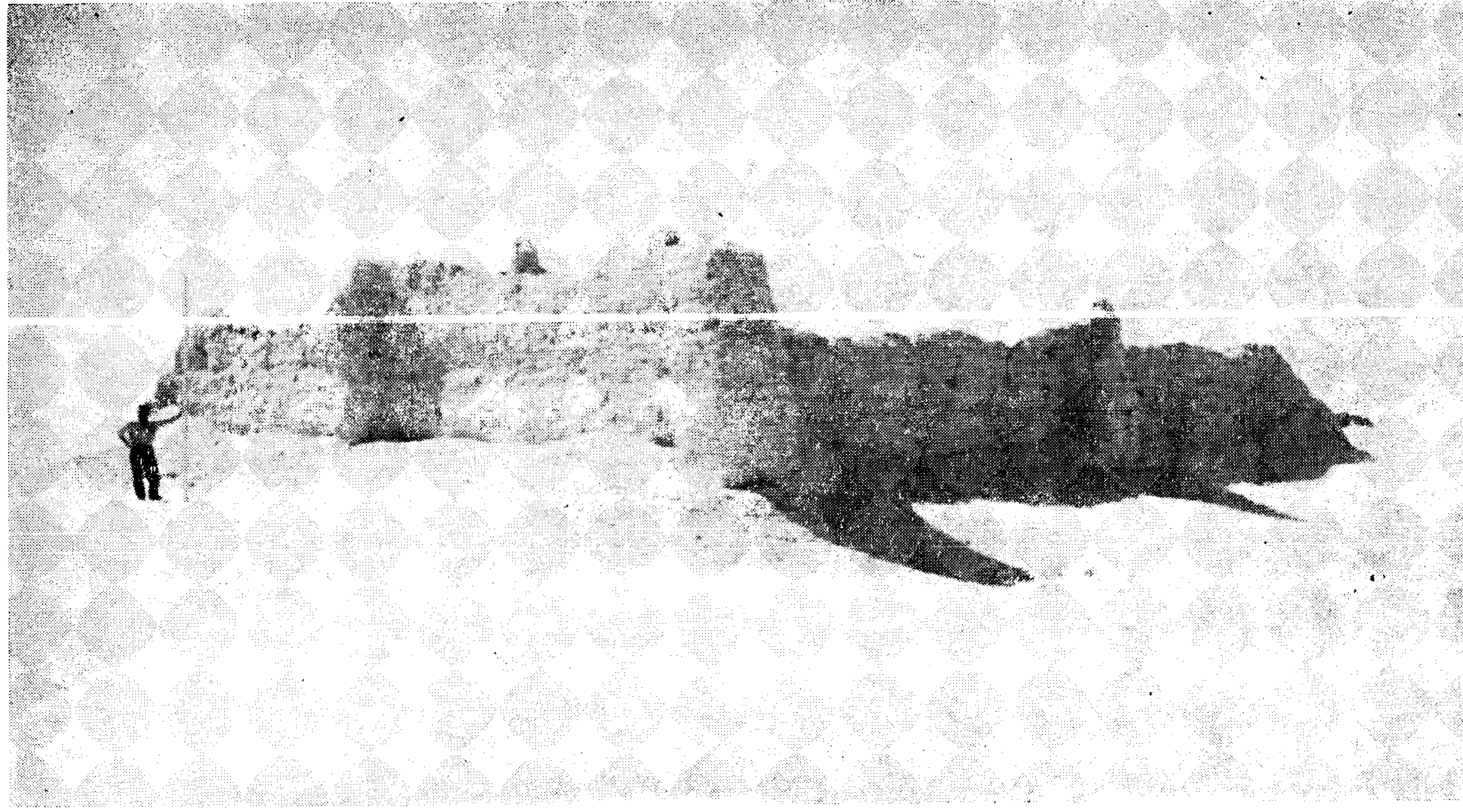
وتحقيقاً لهذه الرغبة فقد تعاهدت القبائل التي تقطن تلك المنطقة وهي: قبيلة إحاجنن Ihadjenen وقبيلة كِل غافسا Kel-Rhafsa وقبيلة كِل تارات Kel-Tart وقبيلة كِل تلاك Kel-Telak وقبيلة اماكامازن Imakamazin تعاهدت ببناء مدينة غات بالقرب من واحه البركات وأخذت كل قبيلة في بناء قسم من المدينة قامت بتشييده والاقامة فيه، كما تركت قسماً للسوق وقسماً آخر لسكنى الأعراب.

وأقامت نظاماً لحكم المدينة إذ وضعت السلطة التنفيذية

في يد مجلس من الشيوخ يمثِّلون القبائل الخمس المتعاهدة ، وكان يراقب أعمال هذا المجلس ثلاث من علماء الدين لهم حق الاعتراض إذا كانت أحكام المجلس تتعارض مع ما نصت عليه الشريعة الاسلامية أو التقاليد والعادات التي ألفها الطوارق .

وكان للمدينة قوة رمزية صغيرة من متطوِّعي الطوارق الذين يعيشون خارج غات ويرأسهم ضابط يسمى بالامغار . ولم يكن إعتماد المدينة على هذه القوة الرمزية بل كان إعتمادها على حماية قبائل أوراغن القوية التي تعهدت بالدفاع عن غات ضد أي غزو خارجي نظير للجزية الكبيرة التي كانت تؤديها المدينة لهم . وكانت قبائل لوراغن تعيش في الهضاب المحيطة بغات ، وقد تعهدت بعدم التدخل في شئونها الداخلية وكذلك بتأْمين جميع القوافل التي تدخل أو تخرج من غات فلا تتعرض لها بسوءٍ .

وقد إزدادت أهمية غات بمرور الزمن حتى أن كلاً من ابن خلدون وإبن بطوطة الرحَّالتين المغربيين قد زارها



قلعة الحرمان بالفجيج – وادي الاجال ، فزان

وأقام بها ، وبمرور الزمن زاد عدد التجَّار من طرابلس وغدامس وسوكنه وتوات بغات حتى أنهم أقاموا بها وتزوَّجوا من نسائها . ثم إنتقلت سلطات الحكم إليها تدريجياً حتى أصبح المجلس مكوَّناً من أبناء هؤلاءِ التجار ، كما أصبح الأَمغار منهم أيضاً ، ولقد أدى هذا الأَمر في النهاية إلى فتور العلاقات بين أهالي غات وحماتهم من الاوراغن إلاَّ أن الأَخيرين لم يحركوا ساكناً مخافة أن ينقطع عنهم ما يتلقونه من الجزية نظير الحماية .

وفي هذا الوقت بالذات زحفت قوات خرمة واستولت على غات بسهولة إلاَّ أن أهالي المدينة وقد خافوا من أن إنتقال السلطة إلى الخرمان معناه حكم الأَعدام بالنسبة لمدينتهم ، ففضَّلوا الاستعانة بالطوارق فاستنجدوا بأَوراغن ولبت قبائل الطوارق النداء ونشب قتال عنيف بينهم وبين الخرمان ، وتغلَّب الأَولون فسقطت في يدهم غات . وفي هذه المرة ترك قائد الأَوراغن المدينة لتحكم نفسها بنفسها عن طريق مجالس التجَّار إلاَّ أنه إحتفظ بمنصب الأَمغار لنفسه وصار يلقَّب بالسلطان .

وقد إنثال الطوارق حوالي سنة ١٥٠٠م على فزان فاستولوا على غدامس وأقاموا بها نظاماً شبيهاً بنظام غات ، ثم دخلوا في وادي الأجال حيث نشبت معارك طاحنة بينهم وبين الخرمان ، وقد كادوا في إحدى المرات أن يستولوا على جرمة القديمة فعلاً فدخل جماعة منهم المدينة على أنهم تجّار واختبئوا في المسجد ، إلاَّ أن المؤذن قد فطن لهم وحذر سلطات المدينة منهم فقبض عليهم ، واتضح بأن لطوارق كانوا قد عولوا على مهاجمة المدينة وأن هذا الفريق هو الذي كان سيقوم بقتل الحراس وفتح الأبواب وقد قام الحاكم بقتل هؤلاء التعساء وفشل الغزو .

إلاَّ أن الرواية المتداولة بين شيوخ جرمة والتي يروونها عن آبائهم وأجدادهم تشير إلى أن بعض غارات الطوارق الناجحة دممت جرمة وتركتها خراباً يبابا . ونجح الطوارق في النهاية من تقويض أركان القلاع الجرامنتية وتضافرت الأوبئة لا سيما الملاريا مع المغيرين حتي أتت على جرمة وأكملت خرابها .

وظهرت دولة أولاد محمد الفاسي وهو شريف من مدينة فاس بالمغرب كان يتزعَّم قوافل الحجاج القادمين من مراكش إلى مكة، ثم تمكَّن بدهائه من أن يقيم لنفسه دولة حكمت فزان منذ أواسط القرن الخامس عشر. وقد بسط السلطان محمد وأبناؤه نفوذهم على وادي الأَجال وحكموه كما حكموا باقي أجزاء فزان. ويظهر من ثنايا رواية ابن غلبون أن الخرمان لم يكونوا راضين عن حكم أولاد محمد الفاسي وأنهم ثاروا ضد حكم أولاد محمد حوالي سنة ١٦٢٢م.(١٠) وتقول روايات شيوخ جرمة أن خرمة أو جرمة قد حوصرت وفتحت بحد السيف، إلا أن عدداً من زعماء جرمة قد هرب إلى طرابلس الغرب حيث لجأً للوالي العثماني رمضان داي وصهره محمد الجزائري وأرسلت الحكومة العثمانية جيشاً لفزان لنصرة الخرمان، وفرَّ السلطان وهو الطاهر الذي قتل في أثناءِ فراره بيد أحد أتباعه، وولى العثمانيون أحد صنائعهم من الخرمان وهو أحمد بن هويدي الخرماني إلاَّ أن السلطان محمد جهيم الذي خلف الطـاهر رجع

بجنوده من تشاد وحاصر مرزق وبعد عدة مناوشات أُقيم الصلح بين العثمانيين وأولاد محمد على أن يتولى الأَخيرون أُمور فزان نظير جزية تدفع لطرابلس الغرب .

وفي عهد يوسف باشا القرماني إستولى محمد بك المكني على فزان وقتل السلطان جهيم ، آخر ملوك دولة أولاد محمد ، سنة ١٨١١ م . وضم فزان نهائياً لولاية طرابلس الغرب .

ونجد جرمة تتردّى في هاوية الفقر والفاقة والخراب ، وتنتشر بها الأَوبئة والأَمراض حتى يتم هجرها نهائياً سنة ١٩٣٦ م .

مـــلاحظات

(1) Diehl C. : L'afrique Byzantine P 339 ff..

(٢) اليعقوبي : « البلدان » صفحة ٩٧ وما بعدها .

(٣) البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب صفحة ١٠ وما بعدها .

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب صفحة ٢٦٢ وما بعدها .

(٥) المرجع السابق نفس الصفحات .

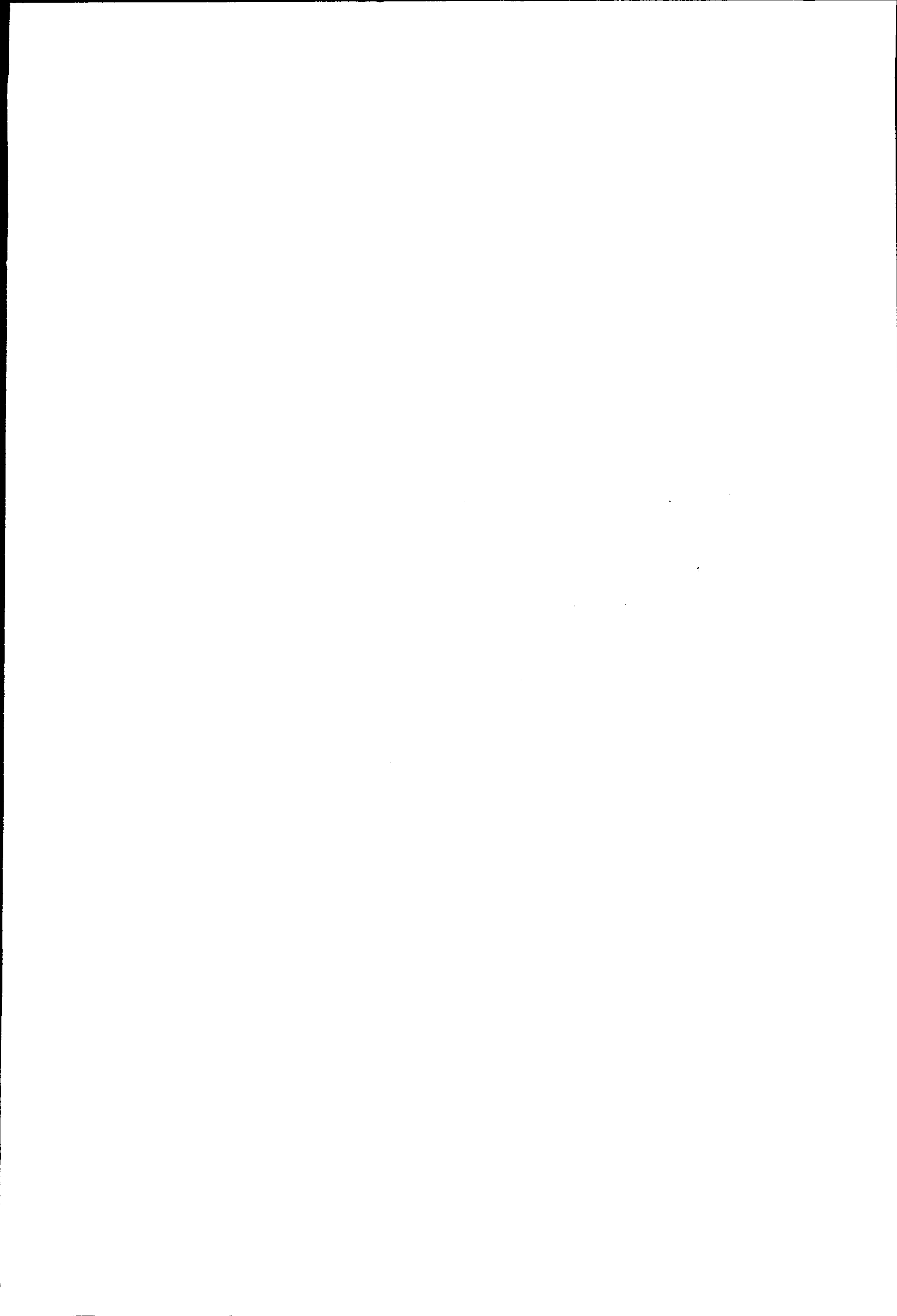
(٦) التيجاني : رحلة التيجاني صفحة ١١١ وما بعدها .

(٧) ابن غلبون : التذكار صفحة ١٠٢ وما بعدها .

(٨) ابن خلدون : المعبر المجلد السادس صفحة ٢٨٤ .

(٩) ابن خلدون : العبر المصدر السابق صفحة ٣٧٠ .

(١٠) ابن غلبون : التذكار صفحة ١٠٢ وما بعدها .



المراجـــع

الادريسي : محمد بن عبد العزيز وكتابه « نزهة المشتاق في ذكر الامصار والاقطار والبلدان » (طبعه ليدن ١٨٦٦ م) .

البكري : ابو عبيد عبد الله بن عبد العزيز وكتابه « المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب » (طبعة دي سلان الجزائر ١٩١١ م) .

ابن خلدون : عبدالرحمن بن خلدون وكتابه « العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر » سبع مجلدات (طبعة دار الكتاب اللبناني سنة ١٩٥٩ م) .

ابن عبد الحكم : عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم وكتابه « فتوح مصر والمغرب » (طبعة لجنة البيان العربي بالقاهرة سنة ١٩٣٠ م) .

ابن غلبون : ابن عبد الله محمد بن خليل غلبون الطرابلسي وكتابه «التذكار» .

ابو الفدا : اسماعيل بن عماد الدين المعروف بأبو الفدا وكتابه « تقويم البلدان » (باريس سنة ١٨٤٠ م) .

التيجاني : أبو محمد عبد الله بن محمد أحمد وكتابه « رحلة التيجاني » (المطبعة الرسمية بتونس سنة ١٩٥٨ م) .

المسعودي : أبو الحسن بن الحسين بن علي الملقب بالمسعودي وكتابه « مروج الذهب ومعادن الجوهر (مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٩٤٨) .

اليعقوبي : احمد بن يعقوب اسحاق بن جعفر الشهير باليعقوبي وكتابه « البلدان » (المطبعة الحيدرية بالنجف بالعراق سنة ١٩٥٧ م) .

ياقوت الحموي : شهاب الدين ابي عبد الله ياقوت عبد الله الحموي الرومي وكتابه « معجم البلدان » (مطبعة السعادة القاهرة سنة ١٩٠٦ م) .

Apollonius of Rhodes; The voyage of Argo (Penguin classics) translated by E.V. Rieu (whilefriars press, Great Britain 1959).

Arkell A.J; A history of the Sudan to 1821 AD. Published by the Athlone press. University of London 1955.

Arkell A.J.; Wanyanga and archaeological reconnaissance of the south-west Libyan Desert. Oxford University press 1964.

Augiras; Le Sahara Occidental, published by Société de Géographie (Paris 1919).

Barth H.; Voyages et decouvertes dans l'Afrique Septentrionale et Central (Paris 1860).

Bovill E. W.; The Golden Trade of the Moors, published by Oxford University press, 1958.

Breasted J.H.; Breasted Ancient Records, published by the Chicago University press, 1905.

Breasted J. H.; A history of Egypt from the earliest times to the Persian conquest, by Hodder and Stoughton, London 1959.

Briggs C.; Tribes of the Sahara. Published by Harvard University (Cambridge) 1960.

Briggs C.; Archaeological investigations near Tipasa, Algeria. Published by the American school of prehistoric research Museum, Harvard University, 1963.

Bulletins; Kush, Jurnal of Sudan Antiquities.

Caputo; Sergi and Paci; Scavi Sahariani, Ricerche nell'Uadi el-Agial e nella oasi di Gat; published by Cura della Accademia Nazionale dei Lincei, 1951.

Charles Daniels; Interim Report of work carried out by the 1965 expedition to Fezzan, Libya.

Charles Daniels; Interim Report of Work carried out by the 1967 expedition to Fezzan, Libya.

Charles Diehl; L'Afrique Bysantine.

Claudian; Loeb Classical Library edition translated by M. Platnauer.

Denham; Clapperton and Oudney; Narrative of travels and discoveries in Northern and Central Africa, London 1826.

Desio; Sahara Italiano. Publication of the Italian Geographical Society 1939.

Duveryrier H.; Les Touareg du Nord; Paris 1864.

Emery W.B.; Archaic Egypt (A Pelican book), 1963.

Forde-Johnston J.L.; Neolothic cultures of North Africa, published by Liverpool University press, 1959.

Gardener A.; Egypt of the Pharaohs, published by claredon press, Oxford 1964.

Gautier E.F.; The Sahara — Great Desert — translated (New York 1935).

Grasiosi P.; L'arte dell'antica e della pietra (Sansoni — Firenze).

Grasiosi P.; L'arte rupestre della Libya (Mostra D'oltremare, Napoli).

Grasiosi P.; Rock art in the Libyan Sahara (Vallecchi), Firenze, 1962).

Gsell S.; Histoire ancienne de l'Afrique du Nord (Paris 1908).

Gsell S.; Herodote Textes relatifs a l'histoire de l'Afrique du (Nord — Published by the University of Algeria, 1915.

Haynes D.E.L.; An archeological and historical guide to the pre-Islamic antiquities of Tripolitania, published by the antiquities department of Tripolitania, 1959.

Herodotus; Histories I, II, III and IV, published by Godley.

Hornemann F.; Jurnal of ...... travels from Cairo to Mourzouk. London 1802.

Howe B. and Hollam L. Mouius; A stone age Cave site in Tangier. Published by Peabody Museum of American archaeology and Ethnology. Harvard 1947.

Institut de Hautes Etudes de Tunis; Mission au Fezzan 1949 par Dr. Pierre Bellair, Ernest G. Gobert, Paul Jodot et Didier Pauphilet (1953).

Institut de Recherche Sahariennes de l'Universite d'Alger. Mission scientifique du Fezzan (1944-45).

a — M.E. Leblanc; Anthropologie et Ethnologie, vol. I

b — Pierre Bellair; Hydrogeologie de la cuvette Fezzanaise, vol. II.

c — J. Despois; Geographie Humaine (1946).

d — Charles Killian; Biologie vegetable au fezzan (1947).

e — F. Benard et P. de Peyerimhoff; Zoologie (1948).

f — M. Dalloni et Monod; Geologie et prehistoire (1948).

Jacquot L.; L'expédition du Zénéral Cavaignac dans le Sahara Algérien en Avril et Mai 1847 (Paris 1849).

Jacquot L.; Dessins rupestres de Moghrar Sud Oranais. Rév. Ec. Anthrop. Paris 1906.

Julius Solinus; Collectanea Rerum Memorabilium — Published by Mommsen, Berlin 1895.

Leo Africanus; translated by John Jory. Editor Brown, London 1895.

Lhote H.; The search for the Tassili Frescoes, translated by Alan Houghton Brodrick, published by Hutchinson, 1959.

Luciani; Loeb classical library edition translated by A.M. Hormon, K. Kelburn and M.D. Macleod.

Lyon G.F.; Narrative of travels in Northern Africa (London 1821).

Mcburney and R.W. Hey; Prehistory and Pleistocene Geology in Cyrenaica, Libya. Published by the Museum of archaeology and ethnology university of Cambridge, 1955.

Macburney C.B.M.; The Stone Age of Northern Africa (A pelican book) 1960.

Mela (Pomponius Mela); De Situ Orbis, translated by Isaac Vors Leyden 1658.

Marcus L. et Duesberg; Géographie Ancienne des états Barbaresque; published by Librairie Encyclopedique de Roret, Paris 1842.

Mori F.; Tadrart Acacus, published by Giulio Einaudi, Torino 1965.

Oric Bates; The Eastern Libyans, published by Macmillan, London 1914.

Pearl R.M.; How to know minerals and rocks, published by the New American Library.

Pliny; Natural History (Leob classical publication). Translated by H. Rackham; W.H. Jones; D.E. Eicholz and E. W. Warminghton.

Ptolemy; Geography (Loeb classical publication). Translated by Robbins.

Roa R.M.C.; The ancient inhabitants of Jebel Moya, Cambridge University press, 1955.

Siluis Italicus; Punica (Loeb classical library publication). Translated by J.D. Duff.

Strabo; Geography (Loeb classical publications). Translated by H.L. Jones.

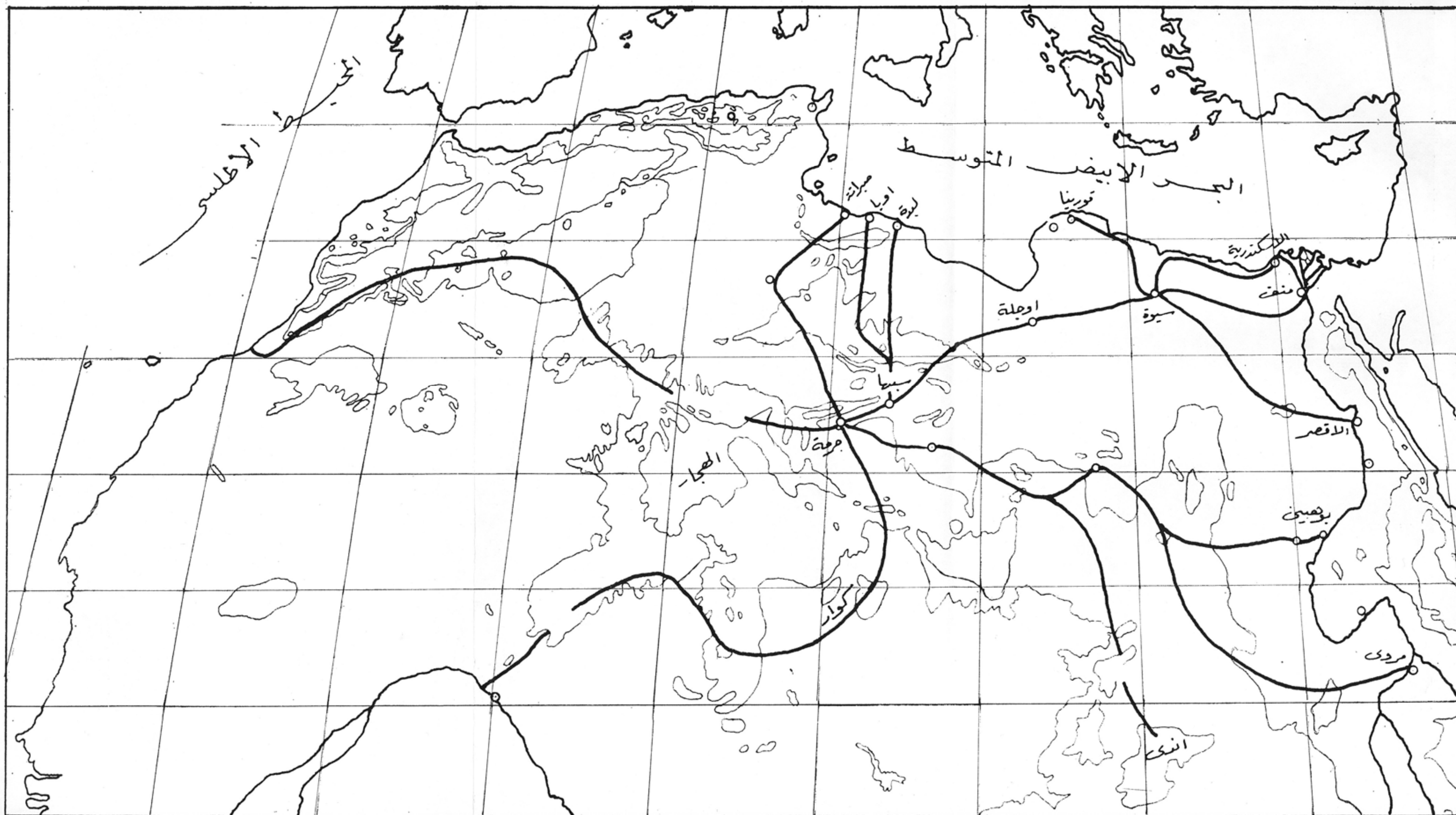
Tschudi J.; Pitture rupestri del Tasili degli Azger; published by Instituto Italiano di Preistoria e protostoria, Firenze 1955.

Vivien de Sain-Martin; Le Nord de l'Afirane dans L'antiquité Grec et Romaine, Paris 1863.

Von Hagen V.; Roman Roads, published by the World Publishing Comp. Cleveland, Ohio, U.S.A. 1966.

Warmington B.H.; Carthage (a pelican book), 1964.

الفهرس



طريق القوافل القديمة بالصحراء الكبرى





الثمن: ٨٠ قرش ليبي
او ما يعادلها